القضـايـا اللغـويـة
فى كتاب « الصاحبى » لابن فارس
فى ضوء مناهج البحث اللغوى الحديث

د. حسام البهنساوى
أستاذ مساعد علم اللغة والدراسات السامية والشرقية
كلية الدراسات العربية والإسلامية بالفيوم - جامعة القاهرة

مقدمة :

يُعدُّ كتاب « الصاحبى » فى فقه اللغة العربية وسنن العرب فى كلامها لأحمد بن فارس (ت ٣٩٥ هـ) واحداً من المؤلفات اللغوية القيمة فى تراثنا اللغوى العربى . فالكتاب يتضمن العديد من الموضوعات المتنوعة : منها ما يتعلق بعلوم اللغة بوجه عام ، وأخرى تتعلق بفقه اللغة العربية ؛ سواء ما يتصل منها بالدراسة النحوية والصرفية والصوتية ، أم ما يتعلق منها بموضوعات تتصل بعلوم الأدب والبلاغة .

والكتاب على هذا النحو ، يحتاج إلى دراسة علمية ، تكشف عما يحتويه من قضايا هامة ودراسات لغوية مفيدة ، تضع هذا الكتاب فى مكانته العلمية اللائقة .

وهذه الدراسة التى تنهض بها ، من عرض للقضايا اللغوية فى كتاب «الصاحبى» لابن فارس ، فى ضوء المناهج اللغوية الحديثة ، تهدف إلى إبراز القيمة العلمية لهذا الكتاب ، فهو مؤلف لغوى قيمٌ ، ومؤلفه عالم لغوى جليل ، من علماء العربية ، ينتسب إلى مدرسة الكوفة ، وهو تلميذ لشيخ من شيوخها المشهورين ، وهو : أحمد بن يحيى (ثعلب) (ت ٢٩١ هـ) . كما تتلمذ على ابن قتيبه (ت ٢٧٦هـ) من علماء البصرة .

وأحمد بن فارس هو صاحب التصانيف والمؤلفات العديدة ؛ التى تصل إلى حوالى سبعة وأربعين مؤلفاً ، كما حصرها الأستاذ / أحمد صقر محقق الكتاب .

والحق ، إنّ هذه المؤلفات العديدة ، تطوف بين ربوع المكتبة العربية والإسلامية فثَمَّة مؤلفات فى مجال الدراسات اللغوية ، كهذا الكتاب « الصاحبى » الذى نعنى بدراسته . ومنها - أيضاً - معجمان فريدان فى منهجهما ، وهما : « المجمل »

و « المقاييس » جعل الترتيب فيهما على حسب الأصل الأول للكلمة . وقد استحدث ابن فارس نظامًا يسمى : « نظام الدائرة » حيث إنه لا يعتبر حروف الهجاء وحدة ذات بداية هى الهمزة ، ونهاية هى الياء ، وإنما اعتبرها دائرة ، تبدأ من أى حرف ، لتنتهى عند الحرف الذى يسبق حرف البداية ، وهكذا تدور الكلمات فى الدائرة . ويمتاز كتاب « المقاييس » باشتماله على فكرتين جديدتين فى حركة التأليف المعجمى العربى ، وهما فكرتا : الأصول والنحت ، وهما فكرتان لغويتان جديرتان .

وثمة مؤلفات أخرى فى مجال الدراسات الفقهية والشرعية ، نذكر منها كتابه : « جامع التأويل فى تفسير القرآن » وكتابه : « حلية الفقهاء » وكتابه : « فتيا فقيه العرب » وغيرها .

وثمة مؤلفات أخرى فى مجال الدراسات الأدبية والبلاغية ، نذكر منها كتابه : « تمام الفصيح » وكتابه : « أبيات الاستشهاد » وكتابه : « ذم الخطأ فى الشعر » وغير ذلك من المؤلفات المتنوعة .

أما كتاب : « الصاحبى » فإنه يبدأ بمقدمة ، ضمّنها ابن فارس الهدف من تأليفه هذا الكتاب وقد لخص هذا الهدف فى عبارة موجزة ، يقول فيها : « هذا الكتاب الصاحبى فى فقه اللغة العربية وسنن العرب فى كلامها » [(١)] يذكر أن لعلم العرب أصلاً وفرعاً ، وأن هدفه فى هذا العمل ، هو البحث عن أصول علم العربية ، ويذكر بأن موضوعات كتابه هذا مثبته هنا وهناك ، بين ثنايا أعمال السابقين ومؤلفاتهم ، وأن ما صنعه هو اختصار مبسوط أو بسط مختصر أو شرح مشكل ، أو جمع متفرق » [(٢)] .

ويشتمل الكتاب على مائتين وستة عشر باباً وعنواناً ، غير المقدمة ، يبدأها بباب « القول على لغة العرب أتوقيف أم اصطلاح » [(٣)] ويختتمه بباب سماه « باب الشعر [(٤)] .

وتناول هذه الأبواب العديدة مجموعة من القضايا اللغوية القيمة والهامة ، نذكرها على الوجه التالى :

(١) الصاحبى ٣ .
(٢) انظر : الصاحبى ٥ .
(٣) الصاحبى ٦ .
(٤) الصاحبى ٤٦٥ .

- قضية الأصل والفرع ؛ التي ذكرها ابن فارس في التمهيد ، وهي من القضايا اللغوية الهامة ، التي أصبحت مثار بحث ونقاش ، لدى علماد اللغة المعاصرين .

يذكر ابن فارس « أن لعِلم العرب أصلاً وفرعاً ، أما الفرع ، فمعرفة الأسماء والصفات ، كقولنا : « رجل وفرس وطويل وقصير . وهذا هو الذى يبدأ به عند التعلم .

وأما الأصل ، فالقول على موضوع اللغة وأوليتها ومنشئها ، ثم على رسوم العرب فى مخاطباتها ، ومالها من الافتنان تحقيقاً ومجازاً » [١] ثم يعقب على ذلك بقوله : « والناس فى ذلك رجلان : رجل شغل بالفرع ، فلا يعرف غيره ، وآخر جمع الأمرين معاً ، وهذه المرتبة العليا » [٢] .

والحق ، إنّ ابن فارس فى تقسيمه للعلم العربى ، وتقسيمه للعلماء والباحثين على هذا النحو ، إنما يتفق مع ما ينادى به العالم اللغوى الشهير : نعوم تشومكى : N.chomsky' رائد النظرية التوليدية التحويلية ، وفى أحدث مراحل نظريته ، وهى المرحلة النموذجية الأكثر توسعاً ، وما يرتبط بها من تعمق وتوسع فى نظرية العامل والاعتماد على المبادئ والأسس ومعايير التغيير (البارامیترات) فى نظرية النحو الكلى ، حيث يتركز الهدف الرئيس للباحث على تحقيق الكفاءة التفسيرية للغة ، بدلاً من مجرد تحقيق الكفاءة الوصفية .

وينبغى منذ البداية ، ألا يخفى علينا ، أن ابن فارس ، لم يرد أن يحدثنا عن قضية اللغة ومنشئها ، وغير ذلك من قضايا الأصل كما ذكرها تشومكى وهو يعنى بها : اللغة بإعتبارها ظاهرة إنسانية ، كما أنه لم يُرد من دراساته عن موضوعات تتعلق بالأصل ، أن يتوصل إلى حقائق اللغة المعقدة ، وعلاقاتها بالنظم الإدراكية ، والقدرات العقلية ، كما هو الحال عند تشومكى وغيره . فلم يزد ابن فارس عن مجرد الحديث عن اللغة العربية .

ونحن بدورنا لا نطالبه بأكثر من ذلك ، ولم نكن نتطلع منه إلى أكثر مما قدّم فى هذا الزمان البعيد ؛ الذى لم تكن تتوفر للعلماء فيه وسائل للبحث العلمى من تقنيات وتكنولوچيا ومناهج حديثة فى البحوث والدراسات !

---

(١) الصاحبى ٣ .

(٢) الصاحبى ٣ .

إن تقسيم ابن فارس الباحثين إلى قسمين على النحو السابق ، يتفق مع ذكره تشومكى عن مراحل التطور فى البحث اللغوى . فثمه مرحلة الكفاءة الوصفية : التى ركز فيها الباحثون على مجرد الوصف والتحليل اللغوى للغة : التى أطلق عليها تشومكى : اللغة المجدة [1] .

أما مرحلة الكفاءة التفسيرية ، فهى المرحلة التى تركزت فيها الدراسات والأبحاث على اللغة المبينة داخلياً ، أى على تفسير اللغة بأعتبارها ظاهرة إنسانية ذات صلة بالقدرات العقلية والنظم الإدراكية والتكوينات والجينات الإنسانية [2] .

- قضية نشأة اللغة العربية :

وحول هذه القضية ، نجد ابن فارس يتعصب للغة العربية ، باعتبارها لغة القرآن الكريم ، ولم يشأ أن يعالج هذه القضية معالجة مجردة ، كما عالجها ابن جنى فى كتابه : « الخصاص » [3] وكما نقلها فيما بعد السيوطى فى كتابه : المزهر فى علوم اللغة وأنواعها » [4] .

---

(١) المعرفة اللغوية ٧٧ وما بعدها . حيث يذكر تشومكى أن النحو فى الاستخدام الشائع ، وصف للغة أو نظرية حولها : هو مادة يؤلفها اللغوى ... وأن الدراسات اللغوية البنيوية ، واللغويات الوصفية ، وكذا علم النفس الإدراكي ، وغيرها من المداخل المعاصرة ، قد اتجهت إلى تصور اللغة كمجموع من الأحداث أو المنطوقات أو الأشكال اللغوية (كالكلمات والجمل) يزاوج بينها وبين المعانى ، أو كنظام من الأشكال أو الأحداث اللغوية .

(٢) انظر : المعرفة اللغوية ٨٢ ، حيث يذكر تشومكى أن قضايا النحو ، هى قضايا نظرية العقل حول اللغة المبينة داخلياً ، ومن ثمّ ، فهى قضايا حول الدماغ / الذكاء brain ، ثم تحديد صيغها فى مستوى معين من التجريد عن الآليات ، وهذه البنى أشياء محددة فى العالم بخصائصها المحددة أيضاً .. ويقول - أيضاً - إن مفهوم النحو الكلى حينئذٍ تفهم على أنها نظرية اللغات الإنسانية المبينة داخلياً ، على أنه نظام من القيود مستقى من الموهبة البيولوجية الإنسانية ؛ التى تحدد هوية اللغات المبينة داخلياً .

وقد ذكر تشومكى هذه التصورات الخاصة بالكليات اللغوية المتعلقة بالوصول إلى دراسة الكفاءة التفسيرية فى كتابه : « مظاهر النظرية اللغوية » - Aspects of theory of syntax, P 25 - حيث ذكر أن دراسة الكليات اللغوية ، هى دراسة سمات أى نحو توليدى للغة الطبيعية ، وهى ترتبط إما بالمكون التركيبى أو الدلالى أو الفونولوجى وإما بالعلاقة المتبادلة بين هذه المكونات .. وهو يقسم هذه الكليات إلى قسمين :

١ - الكليات الصورية : التى تتعلق بسماح القواعد التى تظهر فى الأنحاء المختلفة بالطريقة التى تترابط بها ، وذكر من هذه القواعد ك القواعد التحويلية .

٢ - الكليات المادية : وهى تهتم بالآليات الخاصة بوصف اللغة ، كأقسام الكلمة والسمات الفونولوجية ، وما تشير إليه العناصر المعجمية فى كل لغة طبيعية .

Aspects of theory of syntax, P 28, 29 .

(٣) الخصائص ١/ ٤١ وما بعدها .

(٤) المزهر فى علوم اللغة وأنواعها ١/ ٨ - ١٠ .

يقرر ابن فارس أن لغة العرب توقيف وإلهام ، ويبرهن على ذلك بقول الحق سبحانه : « وَعَلَّم آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّها » (البقرة ٣١/١) ويرفض أن تكون اللغة العربية اصطلاحاً ، ويذكر أنه لم يبلغه أن قوماً من العرب ، فى زمان يقارب زماننا ، أجمعوا على تسمية شئ من الأشياء ، مصطلحين عليه ، فكنا نستدل بذلك على اصطلاح قد كان قبلهم ! [١] .

ولم يكن ابن فارس وحده ، هو الذى تعصّب للغته العربية ، فقد تعصّب العلماء ، فى شأن اللغة الإنسانية الأولى ، للغاتهم القومية أيضا . وثمة أمثلة ونماذج عديدة تمتد بنا عبر فترات التاريخ البشرى : قديما وحديثاً ، حول هذا التعصب ! [٢] .

وهذه القضية اللغوية ، تُعدُّ من القضايا التى اختلفت فيها وجهات نظر العلماء اختلافاً كبيراً . حيث اتسمت فيها البحوث والدراسات بالعصبية الدينية والقومية من ناحية ، وبالتخمين غير المبرهن من ناحية أخرى ، ولم يتوصل فيها العلماء إلى نتائج حاسمة ، وإجابات يقينية حول ماهية اللغة الإنسانية الأولى . ويذكر ماريو باى أنه . « فيما يختص بنشأة اللغة وطبيعتها ، لدينا مصادر تعتمد على الأساطير والحديث المنقول ، والمناقشات الفلسفية ، ولكن تنقصنا الحقائق العلمية فى هذا الصدد » [٣] .

وكما برهن ابن فارس فى القول بأن اللغة العربية وحىٌ وإلهام من عند الله تعالى ، مُدَلِّلاً على قوله بآيات من القرآن الكريم ، فإن علماء اليهود ، يدللون على أن اللغة العبرية وحىٌ وإلهام - كذلك - ! حيث استدلوا ببراهين نقلية ؛ اقتبسوها من الكتب المقدسة ، فيذكرون ما ورد فى التوراة من قولها : « وجعل الرَّبُّ الإله من الأرض ، كل حيوانات البرية ، وكل طيور السماء ، فأحضرها إلى آدم ، ليرى ماذا يدعوها ، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية ، فهو اسمها ، فسمى آدم جميع البهائم ، وطيور السماء وجميع حيوانات البرية [٤] .

---

(١) الصاحبى ٨ .

(٢) انظر : لغات البشر ١٩ واللغة ، لفندريس ٣٤ ودلالة الألفاظ ٩ - ١١ والمدخل إلى علم اللغة ١٢٣ - ١٢٤ .

(٣) لغات البشر ١٧ .

(٤) سفر التكوين ١٩/٢ - ٢٠ .

ونحن نرى أن ما ذكره ابن فارس ، وغيره من العلماء ، حول القول بأن اللغة الإنسانية وحيٌ وإلهام ، لا يستند إلى دليل نقلي أكيد ، فلم يرد فى آيات القرآن الكريم ، بأن اللغة التى علّمها الله سبحانه وتعالى لآدم عليه السلام ، هى اللغة العربية ، وكذلك الحال بالنسبة لما ورد فى التوراة ، حيث لم يرد فى النص المنقول ، ما يؤكد أنها اللغة العبرية أو غيرها ! فلم يحدد لنا القائلون بهذه النظرية اللغة الإنسانية الأولى حديداً تؤيده الأسانيد المنقولة . ولذا فإننا نجد العلماء ، يذهبون فى هذا الشأن مذاهب أخرى متنوعة ، فهناك من العلماء من يقول بمذهب المواضعة والاصطلاح ، حيث يرون أن اللغة من اصطلاح الإنسان ومواضعته [1] . وهؤلاء العلماء - أيضاً - لم يذكروا اللغة الإنسانية الأولى .

ويرى علماء آخرون أنها تقليد ومحاكاة لأصوات الطبيعية [2] . ويرى فريق آخر من العلماء ، أن اللغة الإنسانية ، نشأت فى أول الأمر كتنفيس عن النفس ؛ أى أنها بدأت لغة انفعالية ، تشبه مرحلة الأصوات الساذجة التلقائية الابنعائية عند الطفل ، ثم تأتى فيما بعد مرحلة الألفاظ والعبارات والجمل ، وقد سخر من هذه النظرية « ماكس موللر » وكثير من العلماء ، لأنها لم تبين منشأ الكلمات الكثيرة ؛ التى يمكن ردُّها إلى أصوات أنفعالية ، ولم تشرح السِّر فى تحول الأصوات الأنفعالية إلى ألفاظ وتراكيب . [3] ويرى فريق آخر أن نشأة اللغة الإنسانية تعود إلى الاستعداد الفطرى ، وينصر هذا المذهب العالم الألمانى : « ماكس موللر » [4] كما يقول العالم الألمانى « جَيْجَر » Geiger بنظرية « الملاحظة » أى أن اللغة الإنسانية الأولى جاءت تعبيراً عما لاحظه الإنسان من أعمال وإشارات ، أثارت انتباهه ، فصدرت منه أصوات تلقائية ، تعبر عن هذه الملاحظة [5] .

---

(١) الخصائص ١/٤٤ - ٤٥ .

(٢) الخصائص ١/٤٦ - ٤٧ .

(٣) انظر : المدخل إلى علم اللغة ١١٢ - ١١٤ .

(٤) انظر : المدخل إلى علم اللغة ١١٤ - ١١٦ .

(٥) انظر : المدخل إلى علم اللغة ١١٦ - ١١٧ .

ويرى فريق آخر القول بنظرية « التطور اللغوى » متأثرين فى ذلك بنظرية التطور عند : دارون " Darioin " وقد قارن هؤلاء العلماء بين تطور اللغة عند الطفل واللغة عند الإنسان ، وهم يقررون أنّ لغة الإنسان الأول ، قد مرت بمراحل فطرية متعددة متتابعة ، تتناسب مع مراحل النمو العقلى [١] .

ويبدو من العرض السابق لهذه النظريات والمذاهب ، أنها جميعاً ، لم تجب عن السؤال : ما اللغة الإنسانية الأولى ؛ التى تكلم بها آدم عليه السلام .

= قضية الخط العربى : يفرد ابن فارس لهذه القضية باباً ، يرى فيه أن الخط العربى توقيف من عند الله عزّ وجلّ ، وأنه أقدم الخطوط ، حيث يقول : « إن أسماء هذه الحروف ، داخلة فى الأسماء ، التى أعلم الله جلّ ثناؤه ، أنه علمها آدم عليه السلام ، وقد قال جلّ وعزّ : « عَلَّمَهُ الْبَيَانَ » (الرحمن ٥٥/٤) فهل يكون أول البيان إلا علم الحروف التى وقع بها البيان ؟ ولم لا يكون الذى علم آدم عليه السلام الأسماء كلها ، هو الذى علمه الألف والباء والجيم والدال ؟ » [٢] وهو يدافع عن قناعته فى كون الخط العربى من أقدم الخطوط ، حيث نسب بدايته إلى آدم عليه السلام ! ويقوم بدحض الحجج ؛ التى تقول بأن الأعراب ، لم يفهموا معنى الهمز والجر والكاف والدال بأننا « لم نزعم بأن العرب كلها مدراً ووبراً ، قد عرفوا الكتابة كلها والحروف أجمعها ، وما للعرب فى قديم الزمان ، إلا كنحن اليوم ، فما كلٌّ يعرف الكتابة والخط والقراءة » [٣] كما يعقِّب على عدم فهم أبى حيّة النميرى لمدلول الحرف الأبجدى ، بأن أبا حيَّة ، كان أمسِ ، وقد كان قبله بالزمن الأطول ، من يعرف الكتابة ، ويخط ويقرأ ... » [٤] .

وليس من شك أن حبَّ ابن فارس لهذه اللغة الشريفة ، وتعصبه لها ، باعتبارها لغة القرآن الكريم ، قد دفعه إلى هذا الموقف ؛ الذى لا يستند إلى الدليل العلمى والبرهان العقلى أو النقلى للحقائق اللغوية ! فالمعلوم أن أقدم ما توصل العلماء تراث

---

(١) انظر : المدخل إلى علم اللغة ١١٧ - ١١٨ .

(٢) الصاحبى ١٢ .

(٣) الصاحبى ١٢ .

(٤) الصاحبى ١٢ .

لغوى لحقائق اللغة العربية ونقوشها ، هو ما يعرف بالنقوش الثمودية واللحيانية والصفوية ، نسبة إلى قبائل ثمود ولحيان وهى قبائل عربية قديمة ، استوطنت شمالى الجزيرة العربية [1] .

ويبدو أن الخط الذى كتب به هذه النقوش ، يشبه إلى حدٍّ بعيد خطوط اللغة السبئية والمعينية : التى سماها العلماء العرب اللغة الحميرية ، وهى لغة تكتب من الشمال إلى اليمين فى الغالب ، كما أنها خالية من رموز للحركات القصيرة والطويلة على السواء ، وهو نفسه الخط المسند ، الذى ذكره العلماء العرب [2] .

وفيما لو أحسنا الظن فى أن هذه النقوش ، تمثل اللغة العربية فى عصورها القديمة ، ينبغى أنها لا تمتد فى أعماق التاريخ ، كما هو الحال فى النقوش التى عثر عليها العلماء ، فى لغات أخرى سامية : كاللغة الأكادية - مثلاً - التى يرجع عمر نقوشها الزمنى إلى ما يقارب ٢٣٥٠ عاماً ق . م . وقد قام العالم الإنجليزى : " رولنسون " "Rawlinson" بحلِّ رموز هذه النقوش فى عام ١٨٤٧م [3] . وأما قصيدة : "دتورَة " التى تمثل أقدم نصوص اللغة العبرية ، فإنها ترجع إلى عصر الفتح ، أى الألف الثانية قبل الميلاد ، كما عثر العلماء على خطابات تسمى :" خطابات تل العمارنة" كتبت بلهجات كنعانية جنوبية ، ترجع إلى حوالى ١٤٢٥ - ١٣٥٠ ق . م ، أرسل بها أمراء سوريا وفلسطين إلى فراعنة مصر فى ذلك الوقت ، باللغة الأشورية ، وبها تعليقات بالكنعانية [4] .

ومعلوم - أيضاً - أن الأبجدية العربية ، ترجع فى أصولها الأولى إلى الخط النبطى ، الذى كان منتشراً فى شمالى شبه الجزيرة العربية ، فى منطقة الحيرة والأثبار ، قبل مجئ الإسلام وهؤلاء النبط من الأقوام السامية ؛ التى كانت تتكلم

---

(١) انظر : تاريخ اللغات السامية ، لإسرائيل ولفنسون ١٧٨ - ١٨٧ ، وكذا . اللغة العربية فى عصور ما قبل الإسلام ، لأحمد حسين شرف الدين ٥٧ - ٦٧ وكذا: فصول فى فقه العربية ٥٠ وما بعدها .

(٢) انظر : فصول فى فقه العربية ٥٠ وما بعدها .

(٣) انظر : فصول فى فقه العربية ٢٦ ، وانظر ما أورده الهمدانى من أمثلة فى الأكليل ١٦/١٠ .

(٤) انظر : فصول فى فقه العربية ٢٨ ، ٣٠ .

لهجة أرامية ، من تلك التى كانت شائعة فى كل من سوريا والعراق ، وقد اشتق هؤلاء النبط خطوط أبجديتهم من الخط الفينيقى ، وهذا الخط الفينيقى أفادت منه كثير من شعوب العالم القديم ، بعدما أحدثوا فيه بعض التغييرات على مرِّ الزمان » [1] .

أفضلية اللغة العربية على غيرها من اللغات :

تعبرٍ هذه القضية ، التى أثارها ابن فارس عن موقفه الثابت من تعصب وحب لهذه اللغة المقدسة ، بأعتبارها لغة القرآن الكريم ، فهى القالب والوعاء ، الذى صُبَّتْ فيه آيات الذكر الحكيم ، بما يشتمل عليه من فصاحة وبيان وإعجاز ، ومن ثمَ تأتى قناعة ابن فارس ، حيث يقول :" فلما خصّ جلّ ثناؤه اللسان العربى بالبيان ، علم أن سائر اللغات قاصرة عنه ، وواقعة دونه" [2] . ونحن نتفق مع ابن فارس كل الاتفاق من هذه الوجهة ، وأن الله سبحانه وتعالى ، قد اختار هذه اللغة العربية الشريفة ، دون سائر اللغات الإنسانية على كثرتها ، وقدرة كثير منها على الإبانة والفصاحة . حيث كانت هناك لغات حيّة معاصرة لعهد نزول الوحى الأمين على الرسول محمد (ﷺ) بالقرآن الكريم . وكانت لهذه اللغات مكانة وشأن وفكر وأدب رفيع ؛ كاللغة اللاتينية واللغة الفارسية وغيرها . وقد أفادت اللغة العربية من هذه اللغات المحيطة بها فى عصورها المختلفة ، سواء أكان ذلك قبل الإسلام أم بعد الإسلام .

لكن ابن فارس ينطلق من هذه القناعة إلى الحكم على جميع اللغات غير العربية بالقصور والعجز والعى عن الإفصاح والبيان والبلاغة وغيرها من التعبيرات المجازية العديدة ! فهو يقول : « فإن قال قائل : فقد يقع البيان بغير اللسان العربى ، لأن كل من أفهم بكلامه على شرط لغته فقد بيَّن ، قيل له : إن كنت تريد أن المتكلم بغير العربية ، قد يعرب عن نفسه ، حتى يفهم السامع مراده ، فهذا أخسُّ مراتب البيان ، لأن الأبكم قد يدل بإشارات وحركات له على أكثر مراده ، ثم لا يسمى متكلماً ، فضلاً عن أن يسمى بيِّناً أو بليغاً . وإن أردت أن سائر اللغات تبين إبانة اللغة العربية ، فهذا غلط ، لأنا لو احتجنا إلى أن نُعَبِّر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية

(١) انظر : فصول فى فقه العربية ٣٩٨ .

(٢) الصاحبى ١٦ .

، لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد ، ونحن نذكر للسيف صفات كثيرة ، وكذلك الأسد والفرس وغيرها من الأسماء المسماة بالترادف » [1]. ويتساءل ابن فارس مندهشاً ، فيقول : « فأين هذا من ذاك ؟ وأين لسائر اللغات من السعة ماللغة العرب ؟ هذا ما لا خفاء به على ذي نُهَبَّة [2] .

ونحن هنا لا نتفق مع ابن فارس في القول بأفضلية لغة على أخرى ، من هذه الوجهة ، نحن نتفق معه في أن اللغة العربية الفصحى ، هي وحدها اللغة المؤهّلة ، لأن تكون قالباً لآيات الذكر الحكيم ، ولكننا لا نقبل منه القول ، بأن اللغات الأخرى ؛ غير العربية ، لا تملك عناصر الفصاحة ، ومقومات البلاغة والمجاز وأدواتها ! .

إن دعوى القول بوجود لغات متحضرة " civlized languag " ولغات بدائية "Primitive language" هي دعوى مرفوضة من قبل علماء اللغة المعاصرين ، فليس هناك ما يطلق عليه باللغة المتقدمة واللغة المتخلفة ، حيث يقرر هؤلاء العلماء ، أن الثروة اللفظية لأية لغة من اللغات ، قادرة على تصوير المعتقدات والتقاليد والحضارة السائدة في المجتمع الذي يستعملها [3] . وبناءً على ذلك ، فإنه لا يمكن القول بأن هناك لغة ما بدائية أو أكثر تقدماً عن لغة أخرى [4] بل إننا في ضوء هذه الحقيقة ، يمكننا أن تقرر أن الفرق بين أي لغة بدائية ، وأخرى متحضرة ، لا يمكن بحال أن يزيد عن الفرق بين لغتين بدائتيين ، أو بين أي لغتين متحضرتين [5] .

نحن لا ننكر تأثيرات البيئة والمجتمع على اللغة ، وأن هناك تفاوتاً بين طبقات المجتمع اللغوي ، وقد ذكر ماريوباي بأنه « من المسلم به أن اللغة تتغير تبعاً للطبقة ، التي تتحدث بها ، وقد صرح بعض هواة اللغويات في بريطانيا ، بأن هناك نوعين من اللغة ، أحدهما وقف على الطبقة الراقية ، ولا يمتد استعمالها إلى الطبقة الدنيا ، وهناك لغات تصل الفوارق الطبقية فيها ، إلى أبعد من ذلك ، فهناك - مثلاً - ثلاثة

(١) الصاحبي ١٦ - ١٧ .

(٢) الصاحبي ١٧ .

(٣) انظر : اكتساب اللغة ١٢ .

(٤) انظر : نظرية تشومسكي اللغوية ٤٨ - ٤٩ .

(٥) نظرية تشوسكي اللغوية ٤٩ .

أنواع للغة : (جاوا) أحدها ، يتحدث به أهل الطبقة الدنيا ، ويسمى : نجوكو Ngoko ، والآخر تستخدمه الطبقة الراقية ، ويسمى : كراما Krama ، وثالث ، لتسهيل عملية التفاهم بين الطبقتين ، ويسمى : ماديا Madya . ويتحدث أفراد الطبقة الراقية فى بعض التمثيليات الهندية القديمة : اللغة السنسكريتية ، على حين يتحدث أفراد الطبقة الدنيا ، اللغة البراكريتية » (١) .

وليس معنى ذلك ، أن ثمة تقدماً وامتيازاً للغة فى مقابل لغة أخرى ، فالتقدم والتخلف ، إنما هو للأمم والشعوب ، وليس للغات ، فالشعوب البدائية والنامية ، لها لغاتها ، التى تعبر بها عن معتقداتها وأفكارها ، ومن العجيب أن تجد الثروة اللفظية لهذه الأمم البدائية ، قد لا يكون لها مقابل فى اللغات الأخرى للأمم المتقدمة ، وأنه يصعب ترجمتها أو نقلها ، وتبقى لها خصوصتها وتفردها (٢) .

ففى مجال دلالة الألفاظ - مثلاً - نجد فى حقل القرابة ، فى إطار نظرية الحقول الدلالية ، فإن اللغة العربية تستخدم لفظة : « عم » للدلالة على القرابة من جهة الأب . ولفظه « خال » للدلالة على القرابة من جهة الأم . وكذلك الحال فى كلمة : « عمة » وكلمة : « خالة » بينما نحد اللغة الإنجليزية ، تستخدم كلمة واحدة وهى : uncle للدلالة على القرابة فى كل من : العمومة والخؤولة من الرجال . وكلمة : aunot ، للدلالة على القرابة فى كل من العمومة والخؤولة من النساء . كما أن اللغة العربية تستخدم كلمة : " الأبوة " لعلاقة القرابة الخاصة بالرجل ، وكلمة : « الأمومة » لعلاقة القرابة الخاصة بالمرأة . بينما نجدها كلمة واحدة للدلالة على العلاقتين فى اللغة الإنجليزية ، وهى كلمة : " Parenthood " .

ولا يدلنا هذا الاختصار والاقتصاد فى اللغة الإنجليزية ، فى دلالات الألفاظ السالفة على انكماش علاقات القرابة ، أو على عدم إدراكهم للفروق التى ندركها نحن فى اللغة العربية . فعلاقات القرابة معروفة هى الأخرى عندهم ومحددة ، بيد أن مدلول اللقطة الواحدة ، يتخطى حدود منطقة قرابة إلى حدود منطقة قرابة أخرى . وليس هذا خروجاً على المألوف اللغوى عندهم ، وإنما هو اتفاق البيئة اللغوية على ذلك .

---

(١) لغات البشر ٨٢ - ٨٣ .

(٢) انظر تفصيلات ذلك فى : أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ٢١٨ - ٢٢٣ .

وفى هذا المقام ، يقدم لناجليسون الألفاظ الدالة على معنى ألوان الطيف فى بعض اللغات ، حيث يتأكد لنا اختلاف اللغات عن بعضها فى مدلولات الألوان .

ففى اللغة الإنجليزية ، تتكون ألفاظ الطيف من المفردات الآتية : كلمة : red ، بمعنى : الأحمر . وكلمة : Orange ، بمعنى البرتقالى . وكلمة : Yellow ، بمعنى الأصفر ، وكلمة : green بمعنى الأخضر . وكلمة : blue بمعنى الأزرق . وكلمة : browon بمعنى : البنى . ومجموعها ستة ألوان مختلفة . فى حين تقسمه لغة السونا (لغة روديسيا) إلى ثلاثة أقسام فقط ، وتقسمه لغة الباسا (ليبيريا) إلى قسمين اثنين فقط .

وهذا التقسيم قائم على أساس دلالة الألفاظ على معاينها ؛ فالإنجليزية تقسم ألوان الطيف إلى ستة ألوان ، لأن الإنجليز يرون فروقاً معينة بين مدلولات كل لفظة على معنى ، يختلف عن دلالة اللفظة الأخرى ، فى حين نجد لغة السونا أو لغة الباسا ، تدل فيها اللفظة الواحدة على أكثر من لون ، وليس معنى ذلك أن اللغة الإنجليزية أكثر دقة فى التعبير ، أو أن متكلميها يدركون فروقاً من الألوان ، أكثرمن غيرهم ، فالأمر يرجع إلى قدرة الألفاظ فى التعبير عن معنى فى لغة ، وقصرها على معنى محدود فى لغة أخرى . فيما يطلق عليه بالتنظيم الدلالى للغات . وليست اللغات الإنسانية على سواء فى تنظيماتها الدلالية ، فلكل لغة مقاييسها ومعايرها ؛ التى تختلف عن غيرها من اللغات ، بل قد تختلف فى اللغة الواحدة ، عبر عصورها المختلفة [١] .

ألقاب اللهجات العربية :

يتناول ابن فارس هذه القضية فى " باب اللغات المذمومة " [٢] حيث يستعرض بعض هذه الألقاب ؛ كالتلتلة والعنعنة والكسكسة والعجعجة والشنشنة ، وإن لم يسمها جمعيها ، إلى جانب ما ذكره من تغيرات فى بعض الأصوات ؛ مثل قلب الباء فاء ، وكصوت الجيم القاهرى (گـ) أى الجاف الفارسية ، وغيرها .

(١) انظر تفصيلات أخرى فى : أسس علم اللغة . لماريو باى - ترجمة د / أحمد مختار عمر ط ٢ ٦٦ - ٧٤ .

(٢) الصاحبى ٣٥ .

ويرى ابن فارس أن هذه اللغات ، وإن جعلها من اللغات المذمومة ، غير أنها تُعدُّ لغات للقوم ، حيث يقرر فى « باب اختلاف اللغات » بأن هذه التنوعات اللهجية ، إنما هى فحسب تنوعات فى إمكانيات النطق عند القبائل العربية ، وأن الأمر لا يتعلق بتميز لغة على لغة (١) . حيث يقول بأن " كل هذه اللغات سمات منسوبة إلى أصحابها ... وهى وإن كانت لقوم دون قوم ، فإنها لما انتشرت تعاورها كلٌّ (٢) وهو يمثل لذلك فى باب سماه : " باب القول على اختلاف لغات العرب " (٣) بل نجده يصرح فى " باب اللغات المذمومة " قائلاً :

« ونحن وإن كنا نعلم أن القرآن نزل بأفصح اللغات ، فلسنا ننكر أن تكون لكل قوم لغة ، مع أن قحطان ، تذكر أنهم العرب العاربة ، وأن سواهم العرب المتعربة (٤) كما يعلق على من زعموا بأن ولد إسماعيل عليه السلام ، يعدون ولد قحطان بأنهم ليسوا عرباً ، ويحتجون عليهم بأن أنسابهم الحميرية . فيقول : « فليس اختلاف اللغات قادحاً فى الأنساب » (٥) .

والحق ، فإن ابن فارس فيما سلف ، لا ينكر صحة ما ذكره من اللغات أو اللهجات المتنوعة ، التى أوردتها كتب اللغة الأخرى ، باعتبارها ضرباً من اللحن والانحراف عن المستوى الصوابى للغة العربية الفصحى . وقد ألفت العديد من الكتب التى تحمل عناوينها عبارات : « لحن العامة » أو « لحن العوام » أو « ما تلحن فيه العامة » ونحو لك من المسميات ؛ التى تحكم على هذه اللهجات بالتخطئة واللحن فى قواعدها .

وابن فارس فى هذا السبيل ، يتفق مع وجهة نظر الدرس اللغوى الحديث ، فى النظر إلى هذه اللهجات واختلاف قواعدها عن قواعد اللغة الفصحى ، باعتبارها تمثل مستويات لغوية ؛ ذات كيان ، قد تقترب فى خصائصها أو تبتعد عن اللغة الفصحى بقدر ما يتمسك متكلموها بخصائص اللغة الأم ، أو بقدر انفكاكهم وابتعادهم عنها .

---

(١) انظر : الصاحبى ٣٧ .
(٢) الصاحبى ٣١ .
(٣) الصاحبى ٢٨ - ٣٢ .
(٤) الصاحبى ٣٨ .
(٥) الصاحبى ٣٨ .

فاختلاف هذه اللهجات وابتعادها فى خصائصها عن اللغة الأم ؛ التى تنسب ليها . لا يقدح أو يقلل من قيمتها وصحتها وسلامتها .

وتعلل الدراسات اللغوية الحديثة ، فى ضوء قوانين التطور اللغوى ؛ لما يحدث من تغيرات لهذه اللهجات ، على كافة مستويات التحليل اللغوى ؛ الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية .

وفى ضوء هذه القوابله ، يمكننا أن نلقى الضوء ، على الظواهر اللهجية ؛ التى أوردها ابن فارس .

ظاهرة العنعنة :

ويقص ابن فارس هذه الظاهرة اللهجية على قبيلة تميم فقط ، حيث يقول : « أما العنعنة التى تذكر فى تميم ، فقلبهم الهمزة فى بعض كلامهم عيناً ، يقولون : « سمعت عنَّ فلاناً قال كذا » يريدون : « أنَّ » وروى فى حديث قَيْلة : « تحسب عنِّى نائمة » قال أبو عبيدة : أرادت : تحسب أنِّى ، وهذه لغة تميم . قال ذو الرِّمة .

أعَنْ ترسَّمت خرقاء منزلةً ماءُ الصبابة من عينيك مسجوم

أراد : " أأنْ " فجعل مكان الهمزة عيناً [1] .

والعنعنة تعزى إلى قيس وأسد ، ومن جاورهم ، وقد سماها البلوى : « عنعنة قيس » وذكر أن قارئهم قرأ : « فعسى عن يأتى بالفتح » يريد : أن يأتى بالفتح [2].

وقد اختلف العلماء حول تحديد ماهية هذا اللقب ، ومواضع حدوثه [3] .

ويمكن تفسير هذه الظاهرة فى ضوء قوانين التطور اللغوى ، حيث تحول صوت الهمزة إلى صوت العين ، بسبب القرابة المخرجية ، فصوت العين الحلقى ، قريب من مخرج الهمزة الحنجرى ، غير أن العين من الأصوات الاحتكاكية ، فى حين نجد الهمزة من الأصوات الإنفجارية ، وتحول الأصوات وتغيرها يكون عن طريق القرابة المخرجية أو الاتفاق فى الصفات الصوتية أو فى كليهما معاً .

---

(١) الصاحبى ٣٦ .

(٢) ألف باء ، للبلوى ١/٤٣٢ ، والعين ٣١ .

(٣) انظر آراء كل من ، السيوطى فى : الاقتراح ٨٣ والمزهر ١/٢٢١ وابن منظور فى ، اللسان ١١/١٦٤ ، والمبرد فى الآمال ٢/٧٩ والأحمعى فى : الأمالى ٢/٧٩ . والإبدال لأبى الطيب ٢/٥٥٥ والكامل ، للمبرد ١/٢٥ والخليل فى : العين ١/١٤٠ .

ويرى أنوليتمان ، أن هذه الظاهرة عريقة فى اللغات السامية ، وأنه سمع أهل الحبشة يقولون : خبع ‹haba› ، عوضاً عن : خبأ ‹haba› .[١] بينما يقرر رابين « بأنه من الصعب جداً القطع بما إذا كان النطق بالهمزة أو بالعين أسبق من الآخر [٢] حيث إنه ليس هناك نظائر مماثلة فى اللغات السامية بين « أن » وحرف الجر « عن » فهو يقول أيضاً « أن المصدرية ، وحرف الجر : عن ، ليس له مقابل فى اللغات السامية الأخرى ، حتى يمكن بمقارنتهما معه الوصول إلى الأصل ، وقد تفسر « أن » بأنها « عن » سقط منها الاحتكاك البلعومى ، فصارت العين همزة [٣] .

ظاهرة الكسكسة :

وقد نسبها ابن فارس إلى قبيلة ربيعة [٤] حيث يقول : « وكذلك الكسكسة التى فى ربيعة ، إنما هى أن يصلوا بالكاف سيناً ، فيقولون : « عليكس » [٥] ومن الواضح أن ابن فارس يقصد الظاهرة على إلحاق الكاف المؤنثة سيناً ، أما ثعلب ، فقد نسبها إلى هوازن [٦] ونسبها الفراء إلى قبيلتى ربيعة ومضر [٧] وقد اتفق السيوطى مع الفراء فى نسبتها إلى ربيعة ومضر . [٨] ونسبها الفيروز ابادى إلى قبيلة تميم ، لا لبكر . وهكذا اختلف العلماء حول نسبة الكسكسة إلى قبيلة بعينها ، واختلفوا كذلك حول ماهية الكسكسة [٩] .

(١) انظر : مجلة كلية الآداب ، مجلد ١٠ ط ١ ، مقال : أنوليتمان ، سنة ١٩٤٨م .
(٢) اللهجات العربية الغربية ٢٣١ .
(٣) اللهجات العربية الغربية ٢٣١ .
(٤) الصاحبى ٣٤ .
(٥) الصاحبى ٣٦ .
(٦) مجالس ثعلب ١١٦/١ وخزانة الأدب ٤٩٥/٤ .
(٧) الاقتراح ٨٣ والمزهر ٢٢١/١ والصاحبى ٥٣ .
(٨) المزهر ٢٢١/١ .
(٩) انظر تفصيلات اختلاف وجهات نظر العلماء حول ماهية الكشكشة فى : فقه اللغة ، للثعالبى ١٧٣ والكامل ، للمبرد ٢٣/٢ والخزانة ٦٩٦/٤ والعقد الفريد ٤٧٧/٢ ، والنهاية ، لابن الأثير : ١٧٤/٤ والأمالى ، لأبى الطيب ٢٧/٢ ومحاضرات الأدباء ٦٣/١ والاقتراح ٨٣ والمزهر ٢٢١/١ والخصائص ١٢/٢ وسر صناعة الإعراب ٢١٤/١ وخزانة الأدب ٤٩٥/٤ والكتاب ، لسيبوية ٢٩٥/٢ .

ظاهرة الكشكشة :

يقول ابن فارس : « وأما الكشكشة التى فى أسد ، فقال قوم : إنهم يبدلون الكاف سيناً ، فيقولون : « عَلَيْشَ » بمعنى : عليكَ ، وينشدون :

فعيناش عيناها وجيدش جيدها ولونش إلا أنهـا غيـر عاطـل

وقال آخرون : بل يصلون بالكاف شيناً ، فيقولون : عليكشِ » (١) .

يرى ابن فارس إذن أن الكشكشة تكون فى قلب الكاف شيناً ، سواء أكانت للمذكر ، كما فى المثال : « عليشَ » بمعنى : عليكَ ، أم كانت الكاف للمؤنث ، كما هو الحال فى بيت ذى الرمة . كما يرى أنها تكون فى إلحاق الكاف شيناً ، ويبدو من مثاله ، أنه يدل على كاف المؤنثة .

وقد اختلف وجهات نظر العلماء حول نسبتها من جهة ، وحول ماهيتها من جهة أخرى (٢) .

والحق ، فإن القبائل التى نسبوا إليها الكشكشة ، هى قبائل متجاورة ، متقاربة فى النسب ، أو متخالطة عن طريق الحروب فيما بينها ، كما هو الحال بين تميم وبكر ، ولاشك أن هذه العوامل تساعد على تأثير بعضهم فى بعض .

والكشكشة عبارة عن إبدال كاف المؤنثة فى الوقف شيناً أو إلحاقها شيناً (٣) .

وقد ذكر العلماء للكشكشة صوراً ثلاثة هى : ١ - إثبات الشين فى حالة الوقف ، وهى الصورة الأكثر شيوعاً . ٢ - إثبات الشين فى حالة الوصل . ٣ - قلب الكاف شيناً فى حالة الوصل أو تسكينها فى حالة الوقف (٤) .

وأما وجهات نظر العلماء المحدثين ، فى تفسير ظاهرتى الكسكسة والكشكشة فى ضوء البحث اللغوى الحديث فهى ترى أنَّ تقييد العلماء العرب القدامى للظاهرتين بكاف مكسورة ، يُعدُّ أمراً تسوغه القوانين الصوتية . وأما تقييدهم للظاهرتين بكاف المؤنثة ، فهو أمر يتناقص مع ما ورد فى حالة المذكرة من أمثلة .

---

(١) الصاحبى ٣٥ .

(٢) انظر تفصيلات ذلك فى : الاقتراح ٨٣ والمزهر ١/٢٢١ والخصائص ٢/١١ وسر صناعة الإعراب ١/٢٣٥ وخزانة الأدب ٤/٥٩٤ والإبدال لأبى الطيب ٢/٢٣٠ والكامل للمبرد ٢/٢٢٣ والعقد الفريد ٢/٤٧٧ والكتاب ٢/٤٩٥ وجمهرة اللغة ١/١٥٣ وألف باء للبلوى ٢/٤٣١ .

(٣) فصول فى فقه العربية ١٤٢ .

(٤) انظر تفصيلات هذه الحالات فى : الكتاب ٢/٢٩٥ .

يمكن تفسير الظاهرتين فى ضوء قانون الأصوات الحنكية ، حيث إن أصوات وسط الحنك ، كالكاف والجيم الخالية من التعطيش ، تميل بمخرجها إلى نظائرها من أصوات أمامية ، حين يليها صوت لين أمامي ؛ كالكسرة ، لأن صوت اللين الأمامى فى مثل هذه الحالة ، يجتذب إلى الأمام قليلاً أصوات أقصى الحنك ، فتنقلب إلى نظائرها من أصوات الحنك [1] .

وبتحقق هذا القانون على الظاهرتين ، فإنه تتحول الكاف المكسورة إلى صوت مزدوج . وهو : " تْسْ " ، وهذه هى الكسكسة ، أو : " تْشْ " وهذه هى الكشكشة . والصوت الأول يوجد فى الألمانية ، فى مثل : leipzig (ليبتْسج) والثانى يوجد فى الإنجليزية فى مثل : " Children " بمعنى : (أولاد) [2] .

وقد أحس بعض العلماء العرب القدامى هذا التحول الازدواجى لصوت الكاف ، وفى ذلك يقول ابن دريد : وإذا اضطر لذى لغته ، قال : جيدش وغلامش ، بين الجيم والشين إذا لم تتهيأ له أن يفرده [3] . كما يقول البلوى : « ومن العرب من يلفظ بهذه الكاف بين الجيم والشين ، وذلك من اللغات المرغوب عنها ، لما لم يتهيأ له أن يفرد الجيم ولا الشين . » [4] .

ظاهرة العجعجة :

وهذه الظاهرة لم يسمها ابن فارس ، حيث يقول : « وكذلك الياء التى تجعل جيماً فى النسب ، يقولون : « غلامج » أي : غلامى ، وكذلك الياء المشددة تحول جيماً فى النسب ، يقولون : « بصرج » و « كوفج » قال الراجز :

خالى عويف وأبو علجّ
المطعمان اللحم فى العشجّ
وبالغداة فلقَ البرنجّ [5]

---

(١) فى اللهجات العربية ٨٨ - ٨٩ .

(٢) فصول فى فقه العربية ١٤٦ ، وانظر تفصيلات حول الظاهرتين ١٤٥ - ١٥٠ .

(٣)جمهرة اللغة ١/ ٥ .

(٤) ألف باء للبلوى ٢/ ٤٣٢ .

(٥) الصاحبى ٤٧ .

وقد اختلف العلماء حول الياء التي تقلب جيماً ، وهل هي الياء الخفيفة ، أو هي الياء المشددة ، كما نصَّ على ذلك ابن فارس [1] .

وثمة علماء آخرون ، يشترطون لهذه الظاهرة ، وجود العين في الكلمة التي تقلب ياؤها جيماً ، يقول ابن منظور : « العجعجة في قضاعة ، كالعنعنة في تميم ، يحولون الياء جيماً مع العين [2] كما يشترط ذلك الجوهري - أيضاً - في قوله لحدوث هذا القلب في قضاعة ، أن تجمع مع العين » [3] .

والحق ، فإننا أمام ظاهرة تعددت فيها الروايات حول كيفية حدوثها من جانب ، وحول نسبتها إلى قبائل متنوعة من جانب آخر .

ويذكر د / أنيس ، أن الياء المخففة ، لم تكن خفيفة باعتبارها كسرة طويلة ، عند من يقلبونها جيماً ، وإنما كانت ياءً صامتة ، حيث يقفون عليها بالتضعيف ، « ويظهر أن الياء فيما ساقوا من أمثلة ، لم تكن في نطق القضاعيين ياء مدٍّ ، بل كانت صوتاً ساكناً ، حتى يمكن أن نتصور قلبها إلى جيم » [4] .

وهذه الملاحظة تتفق مع القوانين الصوتية ؛ التي تسوغ حدوث هذا القلب ، فلابد لهذا القلب وغيره ، أن يكون بين أصوات صامتة ، أو بين أصوات متحركة ، وليس بين أصوات صامتة وأصوات متحركة ، وبدون ذلك ، لا نتصور حدوث هذا القلب ، « فالذي يقلب إلى الصوت الصامت ، هو صوت مثله ، ولم نعهد ذلك في حركة قصيرة كانت أو طويلة » [5] .

ومن ثم ، فإن قلب الياء بصورتيها : الخفيفة باعتبارها صوتاً صامتاً ، والياء المشددة ، التي هي صوت صامت بطبيعتها ، يُعدُّ من الأمور التي تقرها القوانين الصوتية ، فالياء والجيم ، ينطقان من مخرج واحد ، وهو الغار (الحنك الصلب) كما

---

(١) انظر تفصيلات حول اختلاف وجهات نظر العلماء في الإبدال ، لأبي الطيب ١/ ٢٦٠ والمزهر ١/ ٢٢٢ والاقتراح ٨٣ وشرح شواهد الشافية ٢/ ١١٢ والنوادر١٦٤ .

(٢) اللسان ٢/ ١٤٤ .

(٣) التصريح ٢/ ٣٦٧ .

(٤) في اللهجات العربية ٧٨ - ٧٩ .

(٥) فصول في فقه العربية ١٣٢ .

أنهما يتفقان فى صفة الجهد ، وليس بينهما خلاف ، سوى أن الجيم الفصيحة صوت مزدوج (يجمع بين الشدة والرخاوة) فى حين يعد صوت الياء من الأصوات الرخوة . وماتزال ظاهة العجعجة مستمرة فى اللهجات العربية الحديثة فى جنوبى الجزيرة العربية . [1] وفى لغة يتجرا Tigra فى بلاد الحبشة الشمالية [2] .

ظاهــرة التلتلــة :

يذكرها ابن فارس دون تسميتها فى « باب اختلاف لغات العرب » [3] حيث يقول : « اختلاف لغات العرب من وجوه : أحدها ، الاختلاف فى الحركات ، كقولنا : « نَستعين » و « نِستْعين » بفتح النون وكسرها . قال الفراء ، هى مفتوحة فى لغة قريش وأسد ، وغيرهم يقولونها بكسر النون »[4] كما ذكرها فى « باب القول فى أفصح العرب » [5] حيث يقول : « ولا يكسر الذى نسمعه من أسد وقيس ، مثل : « تِعلمون » و « نِعلم » ومثل : « شِعير » و « بِعير » » [6] .

والتلتلة عبارة عن كسر حرف المضارعة ، وهى تنسب إلى قبيلة بهراء ، ويعزوها صاحب اللسان إلى عديد من القبائل العربية ، يقول ابن منظور :« وتِعلم بالكسر ، لغة قيس وتميم وأسد وربيعة وعامة العرب ، وأما أهل الحجاز ، وقوم من أعجاز هوازن وأزد السراة وبعض هذيل ، فيقولون : تَعلم . والقرآن بها . وزعم الأخفش أن كل من ورد علينا من الأعراب ، لم يقل إلا : تِعلم بالكسر » [7] .

ويذكر رابين أن قبيلة أسد التى ذكرها الفراء وأبو عمرو على أنها من القبائل التى تفتح حرف المضارعة ، ليست كذلك ؛ ولكنها قبيلة : " أزد " ، التى تفتح حرف المضارعة ، وأن قبيلة طيئ تكسر حرف المضارعة ، لأنها تأثرت فى ذلك بقبيلة قضاعة

---

(١) محاضرات د / ناجى فى معهد اللغات سنة ١٩٧٢م .
(٢) مجلة كلية الأداب ١/١٠ص ٣٦ .
(٣) الصاحبى ٢٨ .
(٤) الصاحبى ٢٨ .
(٥) الصاحبى ٣٤ .
(٦) الصاحبى ٣٤ .
(٧) اللسان (وقى) ٢٨٣/٢٠ .

التى تأثرت بدورها بالمناطق الكنعانية ، التى تمثل الكسرة حرف المضارعة للغائب المفرد ، فى كل من اللغات العبرية والآرامية الغربية والأوجاريتية [١] .

ولعل التناقص فى روايتى ابن فارس السالفيتن ، حيث ذكر أن قريشا وأسد ، ممن يفتحون [٢] ثم ذكر بأن أسداً وقيس ممن يكسرون . [٣] لعل هذا التناقض ، يرجع إلى التصحيف ، وليس إلى الرواية ذاتها ! .

وقد حدد بعضهم مواضع كسر حرف المضارعة فيما عدا الياء فى ستة مواضع ومواضع كسرها بما فيه الياء فى ثلاثة مواضع [٤] .

وظاهرة التلتلة ، تعدُّ من الظواهر السامية القديمة ، حيث توجد فى اللغة العبرية والسريانية والحبشية ، ولعل كسر حرف المضارعة ، كان هو الأصل فى اللغة العربية الفصحى قديماً - أيضاً - بدليل شيوع الكسر فى اللهجات العربية القديمة ، فيما عدا قبيلتى قريش وأزد واستمرار شيوع هذا الكسر فى اللهجات العربية الحديثة ، كما ورد استعمال الفعل « إخال » بمعنى : « أظن » بالكسر فى الاستعمال العربى الفصيح فى أشعار فصيحة ، وأن ذلك على هذا النحو يُعدُّ من بقايا الظاهرة القديمة ، التى كانت سائدة ، قبل أن تموت ، فيما يسمى بالركام اللغوى للظواهر المندثرة فى اللغة [٥] .

ثمة ظواهر صوتية أخرى ، ذكرها ابن فارس فى « باب القول فى اختلاف لغات العرب » [٦] منها :

١ - تسهيل الهمزة :

حيث جعلها ابن فارس أعمق الأصوات العربية مخرجاً ، متفقاً فى ذلك مع ما

---

(١) انظر : اللهجات العربية الغربية ١٥٥ - ١٦٦ .

(٢) انظر : الصاحبى ٢٨ .

(٣) انظر : الصاحبى ٣٤ .

(٤) اللهجات العربية فى التراث .. القسم الأول ٣٨٨ - ٣٩٦ .

(٥) انظر : بحوث ومقالات فى اللغة ٥٨ ، ٢٦٥ - ٢٦٨ وكذا : فصول فى فقه العربية ١٢٥ - ١٢٦ .

(٦) الصاحبى ٢٩ .

صنعه سيبويه وابن جني ، فهو يقول : « في أول الحروف ، الهمزة والعرب تنفرد بها في عُرض الكلام » ولا يكون في شئ من اللغات إلا ابتداءً (١) .

والحق ، فإن هذا الحكم الذى أصدره ابن فارس ، كان يحتاج إلى أن يتقصى عدداً من اللغات ، ليتحرى الدقة في إصدار الأحكام . وهذا ما لم يفعله ابن فارس ، بل إن مقارنة بين العربية وأخواتها الساميات ، تؤكد غير ذلك . ففى اللغة الحبشية « فإن الهمزة لا تسقط فيها في أول الكلمة أو في أول وسطها أو في آخرها ، مثل : "sana" (أنا) في أول الكلمة ، و " malasekt " (ملائكة) في وسط الكلمة ، و nasa (رَفَعَ) في آخر الكلمة (٢) وكذلك نجد أن الهمزة تنطق في اللغتين العبرية والآرامية ، في وسط الكلمة ، في مثل : « Saeal » بمعنى : (سأل) في اللغة العبرية ، وكذا : " Kasem " بمعنى : (قام) في اللغة الآرامية (٣) بل إننا نجد رمزا لهمزة مكتوباً في اللغتين العبرية والآرامية في وسط الكلمة أو في آخرها ، على الرغم من عدم وجوده في النطق ، مثال ذلك : كلمة : بمعنى : رأس ، وكلمة : baras بمعنى : برأ ، في وسط وآخر الكلمة في اللغة العبرية : ومثال : كلمة baras ، بمعنى : برأ ، في وسط وآخر الكلمة في اللغة العبرية : ومثال : كلمة baras ، بمعنى : (بئر) في وسط الكلمة ، وكلمة : (أخطأ) في آخر الكلمة ، في اللغة الآرامية (٤) .

وأما قوله : « ومن ذلك الاختلاف في الهمز والتليين ، نحو : « مستهزئون » و « مستهزُوْن » (٥) فهو يشير إلى تحقيق الهمزة عند تميم ، وتسهيل الهمزة عند الحجازيين ، ومعلوم أن القرآن الكريم نزل بتحقيق الهمزة عند التميميين .

والوصف الصوتي للهمزة ، أنها من الأصوات الحنجرية الانفجارية المهموسة ، حيث ينغلق الوتران الصوتيان في أثناء النطق بها انغلاقاً تاماً ، ثم ينفرج الوتران ،

(١) الصاحبي ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) انظر : المدخل إلى علم اللغة ٢٢٤ .

(٣) انظر : المدخل إلى علم اللغة ٢٢٤ .

(٤) انظر : المدخل إلى علم اللغة ٢٢٤ .

(٥) الصاحبي ٢٨ .

ويكونان فى وضع لا يسمح باهتزازهما لكن سيبوية وغيره من العلماء العرب ، وصفوا الهمزة بالجهر ، وهذا أمر مستحيل مادياً ، مادامت الأوتار الصوتية مقفلة فى أثناء النطق بها ، ولكن هذا الصوت قد يأتى مسهلاً ، أى أن إقفال الأوتار الصوتية ، ربما لا يكون تاماً حين النطق به ، بل قد يكون إقفال تقريبى ، وفى حالة التسهيل هذه ، يحدث الجهر ، ولكن المجهور حينئذٍ ، ليس وقفة حنجرية (همزة القطع) بل تضييق حنجرى ، أشبه بأصوات العلة ، منه بهذا الصوت [1] .

إن ما حدث للهمزة فى لغة الحجازيين « حدث مثله تماماً فى اللغتين : العبرية والآرامية ، إذا تسقط فيهما الهمزة ، فى غير أول الكلمة فى أغلب الأحيان ؛ فإذا كانت الهمزة تنطق فى العبرية فى مثل : sakal (أكل) ، sasar (أسَرَ) (ربَط) وفى الآرامية فى مثل : sena (أنا) ، arbea (أربعة) . ففى كثير من كلمات هاتين اللغتين ، نرى الهمزة لا تنطق فى وسط الكلمة أو فى آخرها ، رغم وجود رمزها فى الكتابة ... » [2] .

٢ - المخالفة الصوتية :

وذلك عن طريق إبدال أحد المتماثلين إلى صوت من الأصوات المائعة ، وذلك فى قوله : « الاختلاف فى الحرف الصحيح ، يبدل حرفاً معتلاً نحو : « أمَّا زيد » و « أيما زيد » [3] حيث قلبت إحدى الميمين ياءً بعد فك إدغامها ، أمى إلى قلبها صوتاً من الأصوات المائعة ، وهو الياء ، للمخالفة الصوتية .

٣ - المماثلة الصوتية :

وذلك فى قوله « الاختلاف فى الإدغام » نحو : « مهتدون » و « فهَدُّون » [4] حيث تأثرت التاء بالدال بعدها ، لاتفاقهما فى المخرج (الأسنانى اللغوى) واتفاقهما فى صفة الانفجار فقلبت دالاً ، ثم أدغمت فى الدال بعدها .

---

(١) انظر : مناهج البحث فى اللغة ٩٧ .

(٢) المدخل إلى علم اللغة ٢٢٤ .

(٣) الصاحبى ٢٩ .

(٤) الصاحبى ٢٩ .

٤ - إطالة الحركة بسبب النبر الطارئ على مقطعها:

ومن ذلك ما ذكره ابن فارس فى « الاختلاف فى الزيادة ، فى نحو : « أَنْظُرُ » و « أنظُورُ » [١] وذكر ما أنشده الفراء :

اللهُ يعلَمُ أنّا في تلفُّتنا يَوْمَ الفراق إلى جيرانِنا صُورْ
وأنَّنى حَيْثُ مايَثنى الهوىَ بَعْدى مِنْ حَيْثُ ما سلكوا أدنو فأنظورُ

حيث انتقل موضع النبر فى الكلمة « أنظر » من المقطع الأول ، إلى المقطع الثانى . فأدى ذلك إلى إطالة حركته ، وتحول النظام المقطعى من : (ص ح ص + ص ح + ص ح) إلى (ص ح ص + ص ح ح + ص ح) .

٥ - ما ذكره ابن فارس عن الحرف الذى بين الباء والفاء ، مثل : « بور » إذا اضطروا ، قالوا : « فور » [٢] ويبدو أن ابن فارس ، يقصد بذلك صوت الباء المهموسة (أ) الموجودة فى اللغات الهندوأوربية ، وأن هذا الصوت ، يذكره العلماء فى اللغة السامية الأم ، وأنه قد تطور إلى صوت : الفاء (F) فى اللغات السامية الجنوبية ، ومنها العربية والحبشية ، وبقى الأصل (أ) فى اللغات السامية الشمالية ، كالعبرية والآرامية والأكادية ، ومن أمثلتها كلمة : PiL (فول) فى العبرية ، تطورت باؤها المموسة فى العربية إلى : فاء ، فيقول : (فول) وكذا الحال فى الحبشية ، فيقال FoL كالعربية [٣] .

٦ - ما ذكره ابن فارس فى « الحرف الذى بين القاف والكاف والجيم » وهى لغة سائرة فى اليمن ، مثل : « جمل » إذا اضطروا قالوا : كَمل [٤] هكذا مكتوبة بالكاف فوقها شرطة ، فيما تسمى بالكاف القارسية . وهذا الصوت الذى يذكره ابن فارس لغة سائرة فى اليمن ، إنما هو النطق القديم لصوت الجيم الفصيح المزدوج (g) الذى نزل به القرآن الكريم ، ويسمى بالجيم الحجازية . فقد ذكر أنوليتمان بأنه « قد روى عن

(١) الصاحبى ٣٠ .

(٢) الصاحبى ٣٦ .

(٣) انظر : سفر صمويل الثانى ٢٨/١٧ وسفر عذرا ٩/٤ وانظر أمثلة أخرى فى : التطور اللغوى ١٨ .

(٤) الصاحبى ٣٦ .

النحـويين (كـمـل) فى : جـمـل ، (ركل) فى : رجل ، (ركب) فى : رجـب ، (كبهـة) فى : جبهـة ، وعلى الأرجح فى هذه الكلمات ، يوجد النطق الأصلى ، يعنى الجيم المصرية ، والسامية العامة ، ولكن النحويين كتبوا كافاً ، لعدم الإشارة للنطق الصحيح [1] ويؤكد د / بشر أن هذا الصوت ، هو صوت الجيم القاهرى ، لأنه الصوت الذى يتفق وتفسيرهم عنه بالجهر ، ويعلل كتابتهم له بالكاف بأمرين هما :

١ - أنهم خافوا أن يكتبوها جيماً ، فيظن أنها الجيم الفصيحة المعروفة ، فكتبوها كافاً لأنها أقرب إلى الجيم ، مخرجاً وانفجاراً .

٢ - أن من المحتمل أن يكونوا كتبوها كَافاً فارسية (كَـ) أى الكاف بشرطة ، ثم ضاعت الشرطة بفعل النُّساج [2] وقد وردت الكاف فى كتاب الصاحبى هكذا : (كَمل) أى : بشرطة [3] .

٧ - ما ذكره ابن فارس عن نبى تميم بأنهم يلحقون القاف باللهاة ، حتى تغلظ جداً ، فيقولون : « الكَوم » فيكون بين القاف والكاف ، وهذه لغة فيهم ، قال الشاعر :

ولا أكَـول لكَدر الكَوم كَـد نضـجت ولا أكَـول لبـاب الدار مكَفـول [4]

ويبدو أن هذه القاف التى نسبها ابن فارس يعنى تميم ، هى نفسها القاف التى وضعها سيبويه ، فهو يقول بأنها : « من أقصى السان ، وما فوقه من الحنك الأعلى ، كما أنها - أيضاً - مجهورة » [5] وصوت القاف الفصيح ، كما ينطقه قراء القرآن الكريم المجيدون فى مصر ، يُعدُّ صوتاً لهوياً انفجارياً مهموساً ..ويرجع كانتيو كون القاف مجهورة ، عند العلماء العرب بقوله : « ربما أن قسماً كبيراً من الألسن الدارجة العربية ، فينطق القاف مجهورة ، أمكننا الاعتقاد على سبيل الاحتمال والترجيح بأن

---

(١) مجلة كلية الآداب ح ١٠ ص ٣ سنة ١٩٤٨م .

(٢) علم اللغة العام - الأصوات ١٢٧ .

(٣) الصاحبى ٣٦ وانظر فى كيفية تحول الجيم القاهرية (gim) إلى صوت الجيم الفصيح المزدوج (gim) بفعل قانون الأصوات الحنكية فى : التطور اللغوى ١٣٢ .

(٤) الصاحبى ٣٦ وكذا جمهرة اللغة ، لابن مديد ٥/١ حيث ورد النص والبيت ، وجميع القافات فيه فوقها شرطة .

(٥) الكتاب ٢/٥٠٤ .

القاف ، كان بالفعل حرفاً مجهوراً فى العربية القديمة ، ويمكن أن يكون نطقه مهموساً فى العربية الفصحى اليوم ، ناتجاً عن كونه أصبح مهموساً فى اللهجات الحضرية المدني ، لأن أغلبية المثقفين اليوم : هم من أصل مدنى » [١] .

قضية الاقتراض من اللغات الأجنبية :

يقول ابن فارس أنه ليس فى كتاب الله جلَّ ثناؤه شئ بغير لغة العرب [٢] ويقوم آراء العلماء فى هذه القضية ، فيذكر رأى أبى عبيد ، الذى يذكر ألفاظاً لأهل اليمن فى القرآن معروفة ، مثل كلمة : الآرائك ، التى وردت فى قوله تعالى : « متكئين فيها على الآرائك » (الكهف ١٦/٣١) وكذلك كلمة : معاذير ، فى قوله تعالى : « ولو ألقى معاذيره القيامة (٢٩/١٥) ويتفق هذا ما مع ذكره الجو اليقى ، الذى يروى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم فى أحرف كثيرة (من القرآن الكريم) أنه من غير لسان العرب ، مثل : سجيل والمشكاة واليم والطور وأباريق واستبرق وغير ذلك » [٣] .

كما يعرض رأى أبى عبيدة ، الذى يقول : « إنما نزل القرآن بلسان عربى مبين ، فمن زعم أن فيه غير العربية ، فقد أعظم القول ، ومن زعم أن كذا بالنبطية ، فقد أكبر القول ... وقد يوافق اللفظ ويفارقه ، ومعناهما واحد ، وأحدهما بالعربية والآخر بالفارسية أو غيرها [٤] . ويذكر أبو عبيدة . أن الاستبرق بالعربية ، وهو الغليظ من الديباج والفرند وهو استبره بالفرسية ، وكذلك كلمة : البلاس ، عند أهل مكة ، أنها عربية الأصل كذلك ، غير أن الفرس ، أو الدهناء أعربوها ، فقاربت الفارسية العربية فى اللفظ والمعنى [٥] .

---

(١) دروس فى علم أصوات العربية ٧٧ ، وانظر آراء كل من الأستاذ الدكتور / إبراهيم أنيس والأستاذ الدكتور / كمال بشر حول اختلاف الوصف الصوتى للقاف بين الدراسات الحديثة والوصف لدى العلماء العرب القدامى فى : الأصوات اللغوية ٧٩ وعلم اللغة العام - الأصوات ١١٠ .

(٢) الصاحبى ٣٩ ، ٤٧ .

(٣) المعرب ، للجو اليقى ٥ والمزهر ٢٦٨/١ .

(٤) الصاحبى ٤٣ ومجاز القرآن ١٧ .

(٥) الصاحبى ٤٤ .

ويعقب ابن فارس على رأى أبى عبيدة موضحاً أن من زعم أن فى القرآن الكريم غير العربية ، فقد أعظم القول ، لأن القرآن الكريم لو كان فيه من غير لغة العرب شئ ، لتوهم متوهم أن العرب ، إنما عجزت عن الإتيان بمثله ، لأنه أتى بلغات لا يعرفونها ، وفى ذلك ما فيه ، وإذا كان كذا ، فلا وجه لقول من يجيز قراءة القرآن فى صلاته بالفارسية ، لأن الفارسية ترجمة غير معجزة ، وإنما أمر الله جل ثناؤه بقراءة القرآن العربى المعجز » (١) .

وما تزال آراء العلماء مختلفة فى العصر الحديث ، حول قضية التعريب . فثمة فريق متشدد يرفض وقوع المعرب فى القرآن الكريم ، على نحو ما رأينا عند ابن فارس وأبى عبيدة ، ويأتى فى مقدمة هؤلاء الأستاذ / أحمد شاكر (٢) . وقد وقف مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، موقفاً متشدداً ، حيث لم يجز إلا تعريب الألفاظ الفنية والعلمية ؛ التى يعجز عن إيجاد مقابل لها فى العربية (٣) .

ويرى د / رمضان عبد التواب ، أن اللغة لا تفسد بالدخيل ، بل حياتها فى هضم الدخيل ، لأن مقدرة لغة ما على تمثل الكلام الأجنبى ، تعد مزية وخصيصة لها ، إذا هى صاغته على أوزانها ، وصبته فى قوالبها ، ونفخت فيه من روحها ، وتركت عليه بصماتها (٤) .

قضية اكتساب اللغة :

تناول ابن فارس قضية اكتساب اللغة فى « باب القول فى مأخذ اللغة » (٥) حيث يقول : « تؤخذ اللغة اعتياداً ، كالصبى العربى ،يسمع أبويه وغيرهما ، فهو يأخذ عنهم على مرِّ الأوقات ، وتؤخذ تلقناً من ملقن ،وتؤخذ سماعاً من الرواة الثقات ، ذوى الصدق والأمانة ، ويتقى المظنون » (٦) .

---

(١) الصاحبى ٤٦ - ٤٧ .
(٢) انظر : مقدمة المعرب للجواليقى ١١ .
(٣) انظر : فصول فى فقه العربية ٣٦٦ - ٣٦٧ .
(٤) فصول فى فقه العربية ٣٦٧ - ٣٦٨ .
(٥) الصاحبى ٤٨ .
(٦) الصاحبى ٤٨ .

ويبدو من حديث ابن فارس ، أنه يرى أن اللغة العربية ، تؤخذ عن طريق الاكتساب من البيئة التى يعيش فيها الطفل العربى أو الإنسان العربى بوجه عام . وهو بهذا يتفق مع وجهة نظر الدرس اللغوى الحديث ، وما تدعو إليه من علاقة اللغة بالمجتمع والبيئة ؛ التى ينشأ فيها الإنسان ، حيث يمرُّ الطفل فى مراحل اكتسابه اللغة بمستويين اثنين هما : ١ - مستوى الأصوات . ٢ - مستوى الأبنية والتراكيب . (١)

ففى المستوى الأول ، يمر الطفل بمرحلتين وهما :

أ - مرحلة الأصوات التى نتيجها الطفل دونما تلبس بأية حالة انفعالية . ب - مرحلة الأصوات التى يسمعها الطفل ويقوم بتقليدها (٢) . أما المستوى الثانى ، فيتضمن مرحلة الأبنية ، وتدرج الطفل من التلفظ بالكلمة الأولى ، إلى أن تصل قدرته على نطق حوالى مائة كلمة فى نحو العشرين شهراً . أما مرحلة التراكيب ، فتتمثل فى : أ - مرحلة الجملة أحادية الكلمة . ب - مرحلة الجملة المؤلفة من كلمتين .

قضية القياس والاشتقاق فى اللغة العربية :

وقد أفرد ابن فارس لهذه القضية باباً بعنوان : « باب القول على لغة العرب ، هل لها قياس ، وهل يشتق بعض الكلام من بعض ؟ » (٥) ويذكر ابن فارس أن أهل اللغة أجمعون « إلا من شذ عنهم ، أن للغة العرب قياساً ، وأن العرب تشتق بعض الكلام من بعض ... وليس لنا اليوم أن نخترع ، ولا أن نقول غير ما قالوه ، ولا أن نقيس قياساً لم يقيسوه ، لأن فى ذلك فسادَ اللغة وبطلانَ حقائقها ، ونكته الباب ، أن اللغة لا تؤخذ قياساً نقيسه الآن نحن » (٣) .

والذى ينبغى التنويه إليه أن الاشتقاق ، يعَدُّ من الوسائَل الرائعة ، التى تنمو

---

(١) انظر : تفصيلات وتوضيحات حول آراء العلماء عن المستويين المذكورين فى . لغة الطفل فى ضوء مناهج البحث اللغوى الحديث ٣٦ - ٦٥ .

(٢) الصاحبى ٥٧ .

(٣) الصاحبى ٥٧ .

عن طريقها اللغات وتتسع ويزداد ثراؤها فى المفردات ، فتمكن من التعبير عن الجديد من الأنكار والمستحدث من وسائل الحياة . [1] والاشتقاق إذن يُعدُّ عملاً تطبيقاً يقوم بتوليد بعض الصيغ والألفاظ من بعض ، والرجوع بها إلى أصل واحد ، يحدد مادتها ، ويوحى بمعناها الأصيل ، مثلما يوحى بمعناها الخاص الجديد [2] وليس من وكدنا الخوض فى تفصيلات حول آراء العلماء ، فى تقسيماتهم للاشتقاق إلى اشتقاق أصغر (صرف) وأكبر ، وغيرها [3] .

ولعله من الواضح أن ابن فارس ، يُعدُّ من المتشددين ، فى منع القياس على ما اشتقته العرب ، مخالفاً بذلك سنة التطور والتوليد فى صيغ اللغة وألفاظها ، قياساً على صيغ موجودة بالفعل ، مخالفاً - كذلك - رأى الجمهور من اللغويين العرب القدامى ، من أمثال : سيبوبة والخليل وأبى عمرو بن العلاء والأخفش وعيسى بن عمر والأجمعى وأبى زيد الأنصارى وابن الأعرابى وأبى عمرو الشيبانى وغيرهم ، الذين يقولون بأن بعض الكلام مشتق ، وبعضه غير مشتق [4] .

وعندما نجد ابن فارس يصرح قائلاً بأن « الذى وقفنا على أن الاجتنان التى هو الذى وقفنا على أن الجن مشتق منه » فنحن نرى أن هذا القول ، ليس دقيقاً ، من حيث إنه قام باشتقاق المعنوى من الحسى ، والصواب هو عكس ذلك ، فالاجتنان هو المشتق من الجن [5] .

قضية الترادف فى اللغة العربية :

وقد ذكر ابن فارس هذه القضية فى باب الأسماء ، كيف تقع على المسميات [6]

---

(١) انظر : فصول فى فقه العربية ٢٩٠ .

(٢) انظر : دراسات فى فقه اللغة ، لصبحى الصالح ٧٤ .

(٣) انظر : الخصائص ٢/١٣٤ وما بعدها ، وفقه اللغة ، د / على عبد الواحد وافى ١٧٢ - ١٨٠ .

(٤) انظر : الاشتقاق ، لابن الراج ٣١ ، ٤١ .

(٥) مقاييس اللغة ٢/١٦٧ ، وانظر فكرته عن الاصول ، حيث يحاول إرجاع أصول الاشتقاق فى المادة اللغوية إلى أكثر من أصل .

(٦) الصاحبى ١١٤ .

حيث يقول : « ويسمى الشئ الواحد بالأسماء المختلفة ، نحو : السيف والمهند والحسام ، والذى نقوله فى هذا ، أن الاسم واحد ، وهو : السيف ، وما بعده من الألقاب صفات . ومذهبنا أن كل صفة منها ، فمعناها غير معنى الأخرى ، وقد خالفت فى ذلك قوم ، زعموا أنها وإن اختلفت ألفاظها ، فإنها ترجع إلى معنى واحد ... وقال آخرون : ليس منها اسم ولا صفة ، إلا ومعناه غير معنى الآخر ، وكذلك الأفعال ... وبهذا نقول ، وهو مذهب شيخنا أبى العباس أحمد بن يحيى ثعلب [١] .

ويقدم ابن فارس آراء القائلين بالترادف فى اللغة ، ذاكراً أمثلتهم ، ويقدم أيضاً آراء الرافضين للترادف - وهو منهم -، ذاكراً أمثلتهم أيضاً . [٢] ويمثل الفريق الأول : الأصمعى وابن خالوية وأبو زيد الأنصارى والمازنى وغيرهم . فيما يمثل الفريق الثانى : أبو على الفارس وثعلب وابن درستويه وأبو هلال العسكرى وابن فارس .

غير أننا نجد ابن فارس يقول : « ومما لا يمكن نقله البتة أوصاف السيف والأسد والرمح ، وغير ذلك ، من الأسماء المترادفة ، ومعلوم أن العجم لا تعرف للأسد اسماً غير واحد ، فأما نحن فنخرج له خمسين ومائة اسم [٣] وهذا نصٌ يفاخر به ابن فارس مصرحاً بوجود الأسماء المترادفة .

والترادف فى الدرس اللغوى الحديث عبارة عن ألفاظ متحدة المعنى ، وقابلة للتبادل فيما بينها فى أى سياق ، والترادف التام - على الرغم من عدم استحالته - نادر الوقوع ، إلى درجة كبيرة ، فهو نوع من الكماليات ، التى لا تستطيع اللغة أن تجود بها فى سهولة ويسر ، فإذا ما وقع هذا الترادف التام ، فالعادة أن يكون ذلك لفترة قصيرة محددة ، حيث إن الغموض الذى يعترى المدلول ، والألوان أو الظلال المعنوية ذات الصبغة العاطفية ، أو الانفعالية التى تحيط بالمدلول ، لا تلبث أن تعمل على تحطيمه ، وتقوي أركانه ، وكذلك سرعان ما تظهر بالتدريج فروق معنوية دقيقة بين الألفاظ المترادفة ، بحيث يصبح كل لفظ مناسباً وملائماً للتعبير عن جانب واحد

(١) الصاحبى ١١٤ - ١١٥ .
(٢) انظر : الصاحبى ١١٥ - ١١٦ .
(٣) الصاحبى ١٧ .

فقط من الجوانب المختلفة للمدلول الواحد [1] .

وقد اشترط العلماء لحدوث الترادف التام شروطاً ينبغي توفرها للقول بذلك ، تذكر منها : [2] ١ - ضرورة الاتفاق في المعنى بين الكلمتين اتفاقاً تاماً .. ٢ - ضرورة الاتحاد في البيئة . ٣ - ضرورة الاتحاد في العصر والزمن . ٤ - ألا يكون أحد اللفظين نتيجة تطور صوتي آخر .

قضية التضاد في اللغة العربية :

وقد ذكرها ابن فارس في قوله : « ومن سنن العرب في الأسماء ، أن يسموا المتضادين باسم واحد ، نحو : « الجون » للأسود ، « الجون » للأبيض . وأنكر ناس هذا المذهب ، وأن العرب تأتي باسم واحد لشئ وضده . [3] وهو يعلق على هذا الإنكار قائلاً : « وهذا ليس بشئ ، وذلك أن الذين رووا أن العرب تسمى السيف مهنداً ، والفرس طِرفاً ، وهم الذين رووا أن العرب تسمى المتضادين باسم واحد [4] . ويذكر أنه جرد في الأضداد كتاباً ، ذكر فيه حجج المنكرين ، وذكر رده عليهم .

وابن فارس - هنا - يصرح بوجود التضاد ، وكذلك يصرح بوجود الترادف - أيضاً - فعبارته هنا صريحة في قبوله للتضاد وللترادف معاً . وهو من القائلين بالتضاد ، لكنه يخالف رأي أستاذه : أحمد بن يحيى ثعلب ، الذي ينكر وجود التضاد ، حيث يذكر الجواليقي قائلاً : « المحققون من علماء العربية ، ينكرون الأضداد ويدفعونها ، قال أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب : ليس في الكلام ضد . قال : لأنه لو كان فيه ضد ، لكان الكلام محالاً ، لأنه لا يكون الأبيض أسود ، ولا الأسود أبيض ... وكلام العرب ، وإن اختلف اللفظ ، فالمعنى يرجع إلى أصل واحد [5] .

---

(١) دور الكلمة في اللغة ، لاستيفن أولمان ٩٨ .

(٢) انظر تفصيلات هذه الشروط : في اللهجات العربية ١٧٨ - ١٧٩ وكذا : فصول في فقه العربية ٣١٦ - ٣٢٢ .

(٣) الصاحبي ١٧ .

(٤) الصاحبي ١٧ .

(٥) شرح أدب الكاتب ٢٥١ .

قضيـــة الإتبـــاع :

ويفـرد لهـا ابن فـارس بابا بعنوان : « باب الإتبـاع » [١] يقـول فـيه : « للعرب الإتباع ، وهو أن تتبع الكلمة على وزنها ، أو رويِّها إشباعاً وتأكيداً ، وسئل أن بعض العرب سئل عن ذلك فقال : هو شئ نَتَدُ به [٢] كلامنا . وذلك قولهم : «ساغبٌ لاغبٌ» و « هو خبٌّ ضَبٌّ » و « خرابٌ بباب » [٣] .

وقد ألَّف ابن فارس رسالة فى الإتباع سماها : « الإتباع والمزواجة » [٤] وقد يظن القارئ أنه لا فرق بين الإتباع وبين المزاوجة ، غير أن برنو Brunnow : الذى قام بنشره ، قام بالتفريق بينهما ، حيث ذكر بأن الإتباع : يقصد به الصيغ الوصفية ؛ التى تتبع الكلمة الأولى بلا رابط ، على حين أن الصيغ الفعلية التى ترتبط بالكلمة الأولى برابط أو تكونٌ وحدها جملاً مستقلة ، تسمى بالمزاوجة . فالإتباع يكون فى مثل : ساغبٌ لاغبٌ والمزاوجة فى مثل قولهم فى جواب من قال : هات ، « لا أهاتيك ولا أواتيك » وقولهم : « ما عنده غيضٌ ولا فيضٌ » أى : كثير ولا قليل [٥] .

قضيـــة النحـــت :

وقد أفرد لها ابن فارس باباً بعنـوان : « بـاب النحـت » [٦] يقـول فيـه : « وللعرب تنحت من كلمتين كلمة واحدة ، وهو حبش من الاختصار ، وذلك « رجل عبشمى » منسوب إلى اسمين ، وأنشد الخليل : (الوافر) :

أقـولُ لهـا ودمـعُ العـينِ جـارٍ ... ألَمْ تَحْـزُنْكِ حـيعلة المنادى

من قوله : « حى على » :

وهذا مذهبنا ، فى أن الأشياء الزائدة على ثلاثة أحرف وأكثرها منحوت ، مثل

---

(١) الصاحبى ٤٥٨ .

(٢) نَتُدُ به : نثبت ونؤكد .

(٣) الصاحبى ٤٥٨ .

(٤) نشرة برنو R.Brunnow ، فى ألمانيا سنة ١٩٠٦م ، ثم نشره مصطفى كمال بالقاهرة سنة ١٩٤٧م .

(٥) انظر : فصول فى فقه العربية ٢٤٧ .

(٦) الصاحبى ٤٦١ .

قول العرب للرجل الشديد : « ضَبَطْرن » من « خبط » و « ضبر » وفي قولهم : « جهصلق » إنه من : « صَهَل » و « صلق » وفي : « الصِّلدم » إنه من : « الصَّلد » و « الصَّدْم » ثم يقول : وقد ذكرنا ذل بوجوهه في كتاب : « مقاييس اللغة » [1].

ويُعدُّ ابن فارس من رواد القائلين بفكرة النحت في اللغة العربية ، فهو يقول : « اعلم أن للرباعي والخماسي مذهباً في القياس ، يستنبطه النظر الدقيق ، وذلك أن أكثر ما تراه منه منحوت . ومعنى النحت : أن تؤخذ كلمتان وتنحت منهما كلمة ، تكون آخذة منهما جميعاً بحظ [2] .

وعلى الرغم من محاولة ابن فارس إرجاع الصيغ الرباعية والخماسية إلى أصولها المنحوتة منها ، إلا أن صيغاً عديدة استعصت عليه ، ولذا نجده يقول : « وهذا ما أمكن استخراج قياسه من هذا الباب ، أما الذي هو عندنا موضوع وضعاً ، فقد يجوز أن يكون له قياس ، خفي علينا موضعه ، والله أعلم بذلك [3] .

ويقصر ابن فارس النحت على الصيغ الرباعية والخماسية ، غير أنه يحدث - أيضاً - في الصيغ الثلاثية ، « فإن كلمة : « أسمر » مثلا ، منحوتة - في رأينا - من : « أسود » و « أحمر » [4] .

وثمة طرق أخرى ، تنشأ بواسطتها الكلمات المنحوتة في اللغة العربية ، ومنها : « المخالفة الصوتية » عن طريق إبدال الحرفين المتماثلين في صيغة : " فعَّل » حرفاً ، يغلب أن يكون من الحروف (المائعة أو المتوسطة (ل م ن ر) مثل : « تقرصع » بمعنى : سال في مشيته ، فأصلها : « تقصَّع » خولفت فيها الصاد الأولى ، وجعلت راءً [5] وقد تحدث المخالفة الصوتية بتكرار الحرف الأول من الكلمة ، عوضاً عن أحد المتماثلين فيها : مثل : كفكف دمعه ، بدلاً من : « كفَّف » [6] .

---

(١) الصاحبي ٤٦١ .

(٢) مقاييس اللغة ٣٢٨/١ .

(٣) مقاييس اللغة ١٤٦/٢ .

(٤) انظر : فصول في فقه العربية ٣٠٥ .

(٥) لحن العامة والتطور اللغوى ٣١٤ .

(٦) الأضداد ، لابن الأنبارى ٣٦٢ وفصول في فقه العربية ٣٠٦ .

كما يمكن أن تنشأ الصيغ الرباعية في اللغة العربية ، عن طريق استعمال وزن « افعالّ » في الشعر ، بإقتحام همزة فيه ، مثل : « اطمأنّ » وهذه ناشئة من الوزن الشعرى [١] .

وقد تقلب عينة كما في بهجة تميم ، وعندئذٍ يتولد عندنا أمثال : « اقشعرّ » و « ابذعرّ » كما تخفف الهمزة ، فتصير هاء ، كما في مثل : « اكفهرّ » و « ازمهرّ » وغير ذلك . وكل هذه الأمثلة وغيرها ، يعدها العلماء العرب من الرباعي ، ويجهلون الطريق الذى سلكته في تطورها [٢] .

ويعلل أولمان لنشوء النحت في اللغة ، أن المتكلم قد يعسر عليه أن « يفصل بين كلمتين وردتا إلى ذهنه دفعة واحدة ، وربما تتداخل الكلمتان فيما بينهما : تداخلاً تاماً ، والنتيجة الطبيعية لمثل هذه الزّلة ، وجوه كلمة هي خليط من عناصر مختلفة ، أو صيرورة الكلمتين كلمة واحدة عن طريق النحت Contamination ، أو تكون كلمة صناعية ، مشتملة على مزيج من أصوات كلمتين أخريين ، وجامعة لمعينيهما ، وأكثر الكلمات التي تتكون بهذه الطريقة ، ذات عمر قصير ، غير أن قدراً غير يسير منها يكتب له البقاء ، فيستقر في اللغة كلمات جديدة [٣] .

وأما ما ذكره بروكلمان ، من أن اللغات السامية ، لا تعرف تركيب الكلمات [٤] أى النحت ، فإنه يقصد بذلك التركيب الذى في مث : " حَبْقُرُ " في اللغة العربية الفصحى ... فإن التركيب مع الاحتفاظ بجميع عناصر الكلمة الداخلة في التركيب أمر نادر في العربية بعكس الألمانية التي يوجد فيها الكثير من الكلمات مثل : "Shreibtischlamp" بمعنى « مصباح المكتب » وغير ذلك [٥] .

---

(١) انظر : تفصيلات حول القول يكون الهمزة في : اطمأن وغيرها ، أصلية أو زائدة وكذا العين في مثل : اقشعر ، والهاء في مثل : ازمهر ، في : فصول في اللغة العربية ١٩٣ - ٢٢٦ ، وأثر الوزن الشعرى في هذه الأبنية .

(٢) فصول في فقه العربية ٣٠٦ .

(٣) دور الكلمة في اللغة ١٤٣ .

(٤) فقه اللغات السامية ١٠٥ .

(٥)فصول في فقه العربية ٣٠٧ .

قضية تأثير النبر الطارئ :

وقد أورد ابن فارس أمثلة لهذا التأثير في بابين متتاليين وهما : « باب البسط في الأسماء » [1] و « باب القبض » [2] حيث يقول : « والعرب تبسط الاسم والفعل ، فتزيد في عدد حروفهما ، ولعل أكثر ذلك لإقامة وزن الشعر وتسوية قوافيه ، وذلك قول القائل :

وليلــــــة خـامـــدة خـمـــودا طخــيـــاء تُغْش الجَـدْي والفُـرْقـودْا

فزاد في « الفرق » الواو ، وضم الفاء ، لأنه ليس في كلامهم « فَعلولا » ولذلك ضك الفاء ، وقال في الزيادة في العقل :

لو أن عَمْراً هَـمّ أن يرقــودا

ومنه :أقول إذا خرًت على الكلكال

أراد : « الكلكل » [3]

ولا شك أن أثر الوزن الشعرى هنا ، هو الذى جعل الشاعر يبسط في الحركات ، في الأسماء والأفعال ، على نحوْ ما ذكر ابن جني في كتابه ، الخصائص ، في باب « مطل الحركات » حيث يقول : وحكى الفراء عنهم : أكلت لحما شاة ، أراد : لحمَ شاة فمطل الفتحة ، فأنشأ عنها ألفاً . [4] ويقول - أيضاً - « وكذلك الحركات عند التذكر يُمْطَلن ... قولهم عند التذكر مع الفتحة في قمتَ : قمتا ، أي : قمت يوم الجمعة ، ونحو ذلك ، ومع الكسرة : أنتى ، أي أنتِ عاقلة . ونحو ذلك ، ومع الضمة : قمتو ، في قمتُ إلى زيد ، ونحو ذلك » [5] .

وعلى الرغم من أن ابن جنى ، لم يتناول المسألة من جهة تأثير الوزن الشعرى ، كما فعل ابن فارس ، وإنما جعلها بسبب التذكر في الكلام النثرى ، فإن القضية في كليهما قضية صوتية ، فالذى أدى إلى حدوث البسط ، هو انتقال مواضع النبر عن

---

(١) الصاحبى ٣٨٠ .
(٢) الصاحبى ٣٨١ .
(٣) الصاحبى ٣٨٠ .
(٤)الخصائص ١٢٣/٣ .
(٥) الخصائص ١٢٩/٣ .

مقاطعها ، إلى مقاطع أخرى جديدة ، بسبب النبر الطارئ فيها أدى إلى إطالة حركاتها ، لكى يستقيم الوزن الشعرى . فكلمة : « فَرْقَد » تتألف من ثلاثة مقاطع وهى : (ص خ ص + ص ح + ص ح ص) يقع النبر فيها على المقطع الأول . أما كلمة : "فُرْقودُ" فإنها تتألف من ثلاثة مقاطع وهى : (ص ح ص + ص ح ح + ص ح ص) وقد انتقل النبر إلى المقطع الثانى ، فسبب ذلك إطالة حركته من الضمة القصيرة إلى الواو الطويلة .

ولم يكن العلماء العرب ، فى هذه العصور المتقدمة ، يعرفون هذه القضايا الصوتية ، كالنبر والتنغيم والمقاطع الصوتية ، التى تعد من ثمار الدراسات الصوتية الحديثة .

وأما قوله : « ومن سنن العرب القبض ، محاذاة للبسط الذى ذكرناه ، وهو : النقصان فى الحروف ، كقول القائل :

غَرْثَى الوِشاحين حَموتُ الخَلْخَل

أراد : الخلخال .

وكذلك قول الآخر : و « سُرُح خُرْجُجُ » أراد : خُرجوناً وهى : الضامر [1] . فالذى أدى إلى هذا القبض ، هو انتقال مواضع النبر عن مقاطعه ، مما أدى إلى نتيجة عكسية – كذلك – تتمثل هذه المرة فى تقصير الحركات الطويلة ! فكلمة : خَلْخَلُ ، تتألف من ثلاثة مقاطع وهى : (ص ح ص + ص ح + ص ح ص) فى حين تتألف كلمة : خلخالٌ من ثلاثة مقاطع أخرى مختلفة وهى : (ص ح ص + ص ح ح + ص ح ص) وقد انتقل النبر من المقطع الثانى : ص ح ح ، إلى المقطع الأول : ص ح ص ، فأدى ذلك إلى تقصيره إلى مجرد : ص ح ، بسبب انحسار النبر عنه .

قضيـــة شاهـد الحـــال :

وقد تحدث عنها ابن فارس فى باب المقول فى أصول أسماء ، قيس عليها ، وألحق بها غيرها [2] وهو يذكر لذلك أمثلة منها : « ويقولون : رفع عقيرته » أى

---

(١)الصاحبى ٣٨١ .

(٢) الصاحبى ١١٢ .

صوته ، وأصل ذلك ، أن رجلاً عُقرت رجله ، فرفعها ، وجعل يصبح بأعلى صوته ، فقيل بعد لكل من رفع صوته ، رفع عقيرته [1] .

وشاهد الحال عبارة عن مجموعة من الألفاظ والتعبيرات اللغوية فى العربية ، يبدو لمن لا يعرف السبب فى منشئها ، أو الحادثة التاريخية ، التى أفرزتها ، أنها بمعناها الذى تستخدم فيه عادة ، منقطعة الصلة بالأصل الاشتقاقى الذى أخذت منه ، غير أننا إذا عرفنا الحادثة الاجتماعية أو التاريخية ، التى تفسرها ، والحال التى قيلت فيها ، اتضح مذهب اشتقاقها ، وبان وجه إطلاقها على المعنى الذى تدل عليه [2]

قضيـــة المصطلـح بين القديـم والحديـث :

تناول ابن فارس فى « باب القول فى الاحتجاج باللغة العربية » [3] مصطلحين هما : ١ - علم اللغة . ٢ - علم العربية (الإعراب) .

وهو يقصد بالمصطلح الأول ما يمكن أن يطلق عليه : متنَ اللغة ، أى ما تشتمل عليه اللغة من مفردات وألفاظ وعبارات ، مع معرفة معانيها ومدلولاتها ، على نحو ما يجرى فى عمل « معاجم اللغة » .

أما مصطلح علم اللغة فى الدرس اللغوى الحديث ، وهو ترجمة للمصطلح الأجنبى Linguisties إنما يعنى أموراً أوسع وأرحب مما ذكره ابن فارس ، فعلم اللغة linguisties ، يُعدُّ من العلوم الحديثة ؛ التى تعنى بدراسة القضايا المتعلقة باللغة ، مجردة عن الارتباط بأية لغة من اللغات ، فقواعد هذا العلم تتسم بأنها قواعد عامة ، لا تختص بلغة بعينها ، وإنما هى قواعد تخص « اللغة » فى ذاتها ومن أجل ذاتها [4] أى اللغة التي تظهر وتتحقق فى أشكال لغات كثيرة ، ولهجات متعددة ،

---

(١) الصاحبى ١١٢ .

(٢) التطور اللغوى ، مظاهره وعلله وقوانينه ١٥٥ ، وانظر الأمثلة التى أوردها كل من سيبوية وابن جنى وابن السراج فى : الكتاب / ٢٦٨ والخصائص ١٦٦/١ ، ٢٤٨ والاشتقاق ٣٣ ، وقد أورد د / رمضان عبد التواب عديداً من الأمثلة والنماذج سواء من التراث القديم أو من الواقع اللغوى المستعمل ، انظر : التطور اللغوى ١٥٥ - ١٧٠ .

(٣)الصاحبى ٥٠ - ٥٦ .

(٤) تنظر : علم اللغة ، رأى ومنهج ، د / العراق ٥١ .

وصور مختلفة من صور الكلام الإنسانى ، ومع أن اللغة العربية تختلف عن الإنجليزية ، وهذه تختلف عن الألمانية ، فإن هناك أصولاً وخصائص جوهرية ، تجمع بين هذه اللغات من جانب ، كما تجمع بينها وبين سائر اللغات ، وصور الكلام الإنسانى من جانب آخر ، وهو أن كلامها لغة أو نظام اجتماعى معين ، تتكلمه جماعة معينة ، بعد أن تتلقاه عن المجتمع [1] ناهيك عن أن علم اللغة الحديث ، قد شهد ثورتين فى الربع الأول من هذا القرن والنصف الثانى من هذا القرن العشرين ، على يدى كل من اللغوى الشهير : دى سوسير ، واللغوى الشهير نعوم تشومسكى . وما أدخلاه من مناهج وأسس أثرت الدراسات اللغوية ، وجعلها تقف جنباً إلى جنب مع الدراسات الإنسانية والعلوم الأخرى [2] .

أما المصطلح الثانى : علم العربية :

فإن ابن فارس يذكره مرادفاً لعلم الإعراب ، إذ يقول : « وكذلك الحاجة إلى علم العربية ، فإن الإعراب ، هو الفارق بين المعانى ... [3] ولعل أهمية الإعراب ، هى التى دعت ابن فارس وغيره إلى القول بأن الإعراب ، هو علم العربية ، يقصد بذلك : علم النحو ، باعتباره العلم المسئول عن النظام التركيبى للجمل والعبارات ، وأن أسس هذا النظام وقواعده ، هى التى تتضمن سلامة الجمل والتراكيب من اللحن والانحراف . وفى ضوء هذا المفهوم ، يقول ابن فارس : « ألا ترى أن القائل إذا قال : « ما أحسن زيد » لم يفرق بين التعجب والاستفهام والذم إلا بالإعراب [4] .

ولسنا نقلل من قيمة الإعراب وأهميته ، فهو من أظهر القرائن ، التى بها يستقيم الكلام العربى ، ويأمن من الانحراف عن الصحة القاعدية والصوابية ، التى ينبغى أن يكون عليها الأسلوب العربى ! لكننا نرى أن الإعراب ، على الرغم من إسهامه الفاعل فى صون الأساليب العربية وحمايتها من البعد عن مستواها الصوابى .

---

(١) فصول فى فقه العربية ١١ .

(١) يمكن الرجوع إلى مؤلفات عديدة ، تلقى الضوء على مسيرة الدرس اللغوى الحديث ، وتطور مناهجه .

(٢) الصاحبى ٥٥ .

(٣) الصاحبى ٥٥ .

إلا أنه ليس هو وحده المسئول عن ذلك . إذ إن هناك قرائن أخرى عديدة ، تسهم بأدوار لا تقل شأناً عن الدور الذى يقوم به الإعراب ! نذكر من هذه القرائن مثلاً : قرينة الرتبة وقرينة التضام وغيرها من القرائن [١] .

إن تضافر هذه القرائن معاً وليست قرينة الإعراب وحدها ، هو المسئول عن صحة التركيب النحوى . أما العلماء العرب ، فقد احتفوا بقرينة الإعراب وحدها احتفاءً أوقعهم فى اللجوء إلى التأويل والافتراض ، وإلى التناقض فى الأحكام فى كثير من أبواب النحو ، ولو أنهم لجئوا إلى تضافر القرائن ، لما وقعوا فى ذلك ، ولما تكلفوا المشقة والعنت فى إصدار الأحكام !

قضية دلالة العلامات الإعرابية على المعانى المختلفة :

وحول هذه القضية ، يقول ابن فارس : فأما الإعراب ، فبه تُميَّز المعانى ، ويوقف على أغراض المتكلمين ، وذلك أن قائلاً لو قال : « ما أحسنْ زيداً » أو « ما أحسنُ زيد » أو « ما أحسن زيدٌ » أبان بالإعراب عن المعنى الى أراده [٢] وهو يذكر فى موضع آخر بأن « الإعراب الذى هو الفارق بين المعانى المتكافئة فى اللفظ ، وبه يعرف الخبر ، الذى هو أصل الكلام ، ولولاه ما مُيِّز بين فاعل من مفعول ، ولا مضاف من منعوت ولا تعجب من استفهام ، ولا صدر من مصدر ، ولا نعت من تأكيد [٣] .

وابن فارس فى رأيه هذا ، إنما يتفق مع جمهور النحاة العرب القدامى ؛ الذين يرون أن الإعراب فى اللغة العربية الفصحى ، إنما هو للتفريق بين المعانى المختلفة ، وهذا ما ذكره الزجاجى فى كتابه : « الجمل » يقوله : « وأصل الإعراب للأسماء ،

(١) انظر : اللغة العربية معناها ومنياها ٢٠٥ - ٢٣١ حيث أورد د / حسام تمام حديثاً مفصلاً عن القرائن اللفظية مُثلة فى : ١ - العلامة الإعرابية . ٢ - الرتبة . ٣ - الصيغة . ٤ - المطابقة . ٥ - الربط . ٦ - التضام . ٧ - الأداة . ٨ - النفخة .

وانظر تفصيلات حول القرائن المعنوية من تخفيف وإسناد ومعية وظرفية وملابسة وغيرها ١٩١ - ٢٠٤ .

(٢) الصاحبى ٣٠٩ .

(٣) الصاحبى ٧٦ .

وأصل البناء للأفعال والحروف ؛ لأن الإعراب ، إنما يدخل فى الكلام ، ليفرق بين الفاعل والمفعول ، والمالك والمملوك والمضاف والمضاف إليه ، وسائر ذلك مما يعتور الأسماء من المعانى ، وليس شئ من ذلك فى الأفعال ولا الحروف (١) .

لكننا فى المقابل ، نجد واحداً فقط من علماء النحو القدامى ألا وهو قطرب ، محمد بن المستنير يقول : « إنما أعربت العرب كلامها ، لأن الاسم فى حالة الوقف يلزمه السكون للوقف ، فلو جعلوا وصله بالسكون - أيضاً - لكان يلزمه الإسكان فى الوقف والوصل ، وكانوا يبطئون عند الإدراج ، فلما وصلوا أمكنهم التحريك ، جعلوا التحريك ، معاقباً للإسكان ، ليعتدل الكلام ، ألا تراهم بنوا كلامهم على متحرك وساكن . ومتحركين وساكن ، ولم يجمعوا بين ساكنين فى حشو الكلمة ، ولا فى حشو بيت ، ولا بين أربعة أحرف متحركة ، لأنهم فى اجتماع الساكنين يبطئون ، وفى كثرة الحروف المتحركة يستعجلون ، وتذهب المهلة فى كلامهم ، فجعلوا الحركة عقب الإسكان (٢) .

قضية انفراد اللغة العربية الفصحى بالإعراب دون سائر اللغات :

يقول ابن فارس : « وللعرب ما ليس لغيرها ، فهم يفرقون بالحركات وغيرها بين المعانى (١) ويقول أيضاً فى « باب ذكر ما اختصت به العرب » (٢) : أن من العلوم الجليلة ؛ التى اختصت بها العرب ، الإعراب الذى هو الفارق بين المعانى المتكافئة فى اللفظ (٣) .

وهذا القول عند ابن فارس ، لا يستند إلى الدليل العملى ، أو البرهان الأكيد من لغة أخرى من اللغات الإنسانية ، بل إننا نجد الأمر على عكس ذلك ، فمن المعلوم أن

---

(١) الجمل ، للزجاجى ٢٦٠ ، وانظر : الإيضاح فى علل النحو ٦٩ ، حيث أورد نصاً اخر مماثلاً لما ورد فى : الجمل .

(٢) الإيضاح فى علل النحو ٧٠ وكا : الأشباه والنظائر ١/ ٧٩ وسائل غلافية ، للعبكرى ٩٥ ، ولكننا نجد أن الدكتور / إبراهيم أنيس ، يؤيد هذا الرأى كذلك . انظر تفصيلات رأيه فى الإعراب فى : من أسرار اللغة ط ٣ ١٨٣ - ٢٥٨ ، وانظر فى الرد على ذلك : فصول فى فقه العربية ٣٨٢ - ٣٩٥ .

اللغات الهند وأوربية القديمة ، كاللغة اللاتينية واليونانية ، كانت من اللغات المعربة ، ليس ذلك فحسب ، بل إن رموز الحركات الإعرابية فى هذه اللغات ، لا تسقط مطلقاً من نهاية الأسماء ، حين الوقف عليها ، كما يحدث - غالباً - للحركات الإعرابية فى لغتنا العربية (٢) .

كما أن اللغات السامية ، كاللغة الأكادية والحبشية والاوجرابنية ، من اللغات المعربة (٣) .

ومن ثم فإن وجهة نظر ابن فارس ، حول الإعراب ، وتخصيصة علي العربية فحسب ، تفتقر إلى الدليل القوى ، نظرا لعدم تقصية أحوال اللغات الإنسانية الأخرى . . ولعلة اعتمد فى حكمة السابقة على مقارنة بين العربية والفارسية ... على الرغم من وجود حركة للإضافة فى اللغة الفارسية وهى الكسرة .

كما يشتمل الكتاب على موضوعات وقضايا أخرى عديدة ، حول أقسام الكلام (٤) كما خصص أبوابا للحديث عن حروف المعانى (٥) وأبوابا أخرى لانواع الاسلوب العربى من خبر واستخبار وأمر منها وغيرها. (٦) كما خصص أبوابا عديدة حول المعانى البلاغية المتنوعة. من الخطاب وصورة و الكلام على الحقيقة والمحياز . (٧)

وبعد .. فإن القضايا اللغوية ، التى أثارها ابن فارس ، فى كتابه «الصاحبى» تعد من القضايا اللغوية الجديرة بالاعتبار والبحث والنظر لاستجلاء مافيها من معالجات وأفكار ، تقف جنبا إلى جنب ، مع نظيراتها من القضايا اللغوية المعاصرة ، ويُعَدّ من الضرورى إذن إعادة البحث والفحص والقراءة الدقيقة لمثل هذه المؤلفات العربية فى تراثنا الزاخر ، فى ضوء مناهج البحث اللغوى الحديث .